محاضرات مختصرة متعلقة بمقياس علم المخطوط، وتدعمت بمقالات لها صلة بالموضوع

مفهوم علم المخطوط:

يعرف علم المخطوطات على أنّه علم دراسة الكتب كأشياء مادية. وبخاصة المخطوطات المكتوبة على الرّق فعلى شكل المخطوطات المأثورة أو الأسفار القديمة (C.dex)، وغالبا ما يشار إليها باسم علم آثار الكتاب حيث يهتم هذا العلم بالمواد والطرق المستخدمة في صناعة الكتب وتجليدها. يدرس هذا العلم المخطوطات في مظهرها المادي. وقد نشأ في فرنسا، وتحديدًا في مدينة باريس خلال العقدَين الثالث والرابع من القرن العشرين. ويعود تأسيسه إلى كلّ من شارل ساماران (Charles Samaran) وألفونس دان (Alph.nse Dain). فابتكر الأوّل مصطلح كوديغرافيّا " C.digraphie" بدون أن يحدّد بشكل دقيق معناه. أمّا دان فابتكر المصطلح الثاني " C.dic.l.gie" (علم المخطوطات) واستعمله أوّل مرّة سنة 1944، خلال إعطائه دروسًا في مادّة علم اللغة اليونانيّة (Phil.l.gie grecque)، وبقي المصطلح غير متداول إلى سنة 1949، حيث نشر كتابه الشهير الذي حمل عنوان "المخطوطات" (Les manuscrits)، وأعلن فيه ابتكاره لهذا المصطلح. وحدّد معنى المصطلح الجديد.

ويشتقّ مصطلح كوديكولوجيّا من الكلمتَين: كودكس "C.dex" اللاتينيّة التي تعني مجموعة كرّاسات مجموعة في مجلّد واحد ولها غلاف خارجيّ. ولوغيّا " L.gia" اليونانيّة وتعني بالمعنى الضيّق "الكلام" وبالمعنى الواسع "علم". وللكوديكولوجيّا تحديدان: الأوّل ضيّق (strict. sensu) ويُعرف بعلم آثار الكتاب، واختصاصه دراسة المخطوطات من النواحي الخارجيّة كالشكل ونوع الورق ونوع الحبر وطريق التجليد، الخ...، والثاني أوسع (lat. sensu) يدرس تاريخ المخطوط ومحتواه وأهميّته الواقعيّة بالنسبة إلى الناس. أمّا الاهتمام بهذا النوع من الدراسة والعلم فقد ظهر في ألمانيا وعُرف باسم "علم المخطوطات" أو "فنّ المخطوطات" (Handschriftenkunde).

وبعد ذلك، ظهرت في أوروبّا مجلاّت متخصّصة بهذا النوع من العلم، أهمّها:

1- ''Script.rium'' الفرنسيّة التي تأسّست في بلجيكا سنة 1946، وكانت فصليّة وتجمع أقوالاً مأثورة من

هذا المخطوط أو ذاك، وبالتالي لم تكون مجلّة كوديكولوجيّا بالمعنى الحقيقيّ للكلمة.

2- ''C.dic.l.gica'' الهولّنديّة، وقد تأسّست سنة 1976، وكانت تُعنى بالقضايا المنهجيّة في دراسة علم المخطوطات.

3- "Gazette du livre medieval'' الفرنسيّة، وقد تأسّست سنة 1982، بهدف الدفاع عن الباحثين في علم المخطوطات، ولأجل نشر كلّ معلومات تُفيد في هذا العلم.

4- ''Scrittura e civiltà'' الإيطاليّة، وهدفها دراسة النصوص من الزاوية التاريخيّة.

و في سنة 1985 أصدر دونيز موزيريلّ (Denis Muzerelle) كتابًا باللغة الفرنسيّة حمل عنوان "المعجم اللغوي لعلم المخطوطات" (V.cabulaire c.dic.l.gique) وفيه وضع شرحًا للكلمات المستعملة في هذا العلم

مقال مفيد: **نحو تأسيس علم مخطوطات عربي: التجربة الغربية**

د. أحمد شوقي بنبين

من الصعوبة بمكان في الوقت الراهن تحديد ما يسمى بـ»علم المخطوط« تحديداً نهائياً، وذلك بالرغم من تلكم التعريفات المتعددة المتناثرة في مختلف الدراسات الغربية كتباً كانت أو أبحاثاً منشورة في الدوريات المتخصصة. والسبب في ذلك هو أن هذا العلم ما زال في بداياته الأولى، وطبيعي أن تختلف الآراء وتضطرب المواقف بين ذوي الاختصاص في تحديد هذا المولود الجديد. ولابد لنا في حالة إقدامنا على دراسة المكونات التأسيسية لعلم مخطوطات عربي حديث أن نشير بإيجاز إلى نشأة هذا العلم في الغرب ونحدد الأشواط التي قطعها عند الفيلولوجيّين في أوربا المهتمين بالدراسات العلمية للنصوص التراثية الغربية، اليونانية واللاّتينيّة منها على الخصوص. فإذا كانت دراسة المخطوط عند الفيلولوجيين وسيلة لممارسة عملية نقد النصوص، فإنها عند هذه الفئة الجديدة التي يدعى أصحابها بالكوديكولوجيين مادة أساسية تدرس لذاتها، باعتبار أنه لا يمكن البحث في توثيق نص من النصوص وتحقيقه ودراسته دون الإلمام بالأسس المادية وتحديد الظروف العلمية والاجتماعية التي تم خلالها إنجاز المخطوط، ثم معرفة الطرق التي وصل إلينا بها هذا النص.

إن الكوديكولوجيا علم يستمد أصوله ومقوماته من أعمال الفيلولوجيين الكلاسيّين الفرنسيين منذ القرن السابع عشر، خصوصاً تلكم التي قام بها الرهبان البندكتيون في الكنائس والأديرة كالراهب مونتفوكون 1741] (M.ntfauc.n) م] الذي يعتبر كتابه Bibli.theca bibli.thecarum، أي مكتبة المكتبات أو ببليوغرافيا خزائن الكتب من أهم مصادر هذا العلم. وبالرغم من اتفاق المختصين في هذا المجال على استقلالية العلم، فإنهم اختلفوا في تعريف مفهومه وتحديد مكوناته. إن الكوديكولوجيا عند ألفونس دان (Alf.nse Dain) . وإليه ينسب وضع هذا اللفظ C.dic.l.gie . هو العلم الذي يهدف إلى دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية دون الاهتمام بالخط. وبهذا تستقل الكوديكولوجيا عن الباليوغرافيا التي كانت تعني »علم المخطوط« بالإضافة إلى »علم الخطوط القديمة« ([1]). إن هذا الاستقلال جعل مهمة الكوديكولوجي تشبه من بعض الوجوه مهمة الأركيولوجي الذي يهدف إلى إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة لتمكّنه من دراسة حضارة من الحضارات الماضية. إنه جزء من التاريخ يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعاً

مادياً، أي بوصفه وعاء للنص([2]). لهذا اقترح أحد العلماء البلجيكيين مازي (Masai) عبارة »آثارية المخطوط (archéلl.gie du manuscrit) »للتعبير عن علم المخطوط فقال: »الكوديكولوجيا هي أركيولوجيا الكتب التي تعتبر أغلى وأنفس آثار حضارة معينة«. وبرر مازي هذه التسمية بأن لفظ »كوديكس (C.dex) »اللاّتيني الذي يكون جزءاً من كلمة كوديكولوجيا (c.dic.l.gie)يستثني كل ما ليس بكتاب كالقراطيس واللفائف والرقم الطينية وما ماثلها من الأوعية القديمة التي يطلق عليها اللاّتينيون لفظV.lumen ، ويعني باللاّتينية اللفافة أو »الطومار« بالتعبير الشرقي.

وللخروج من هذا الغموض، لجأ بعض العلماء إلى استعمال عبارة أعم وأوسع من شأنها أن تعبر عن كل ما هو مكتوب، بما في ذلك اللفائف واللوحات الطينية، وهي »الكوديكولوجيا الوسيطية » (c.dic.l.gie médiévale)بمعناها الواسع الذي يشمل »الكوديكس« بالإضافة إلى الأوعية القديمة سالفةِ الذِّكر. وأخيراً، اقترح الفيلولوجي البلجيكي جلبير وي (Gilbert .uy) عبارة »وثائقية المخطوط(archivistique du manuscrit) »، لأن الكوديكولوجي الذي يبحث بحثاً مادياً في مجموعات المخطوطات يكاد يشبه في طريقته ومنهجه في البحث تلكم الطرق التي يستعملها الوثائقي في بحث الوثائق ودراستها.

وفي محاولة للنهوض بعلم المخطوطات وإيماناً منهم بتقدمه وتطويره، ارتأى المختصون في هذا المجال والذين كانوا يفكرون ويعتبرون أن دراسة المخطوط ما كانت إلاّ إحدى الوسائل لدراسة التحولات الثقافية في مجتمع من المجتمعات، أن يعتمدوا مقاربة معاكسة تتجلى في جعل التاريخ الثقافي أداة ووسيلة للبحث في تاريخ المخطوط. وقد يتم هذا بدراسة الأرصدة الضخمة من المخطوطات المحفوظة في خزائن العالم دراسات خاصة تمكنهم من الإجابة عن العديد من التساؤلات مثل: ما عدد المخطوطات التي نسخت في جهات خاصة في فترة معينة من فترات التاريخ؟ وما الوسائل المستعملة لإنجازها؟ وكيف كانت التكلفة؟ وما المردود الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه العمليات؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي كانت تخامرهم عندما كانوا يحاولون وضع المخطوط في محيطه المادي والتاريخي والجغرافي. وهنا يلجأ الكوديكولوجيون إلى ركوب البحث الكمي في دراسة علم المخطوط، لأنه هو الطريق الوحيد الذي قد يمكن من تموقع الكتاب في سياق إنتاج الكتب في عصره ويمكن من تقدير الخصائص الفردية للمخطوطات في الزمان والمكان. ولتحقيق هذه الأهداف، عمل الفرنسيون في الثلاثينيَّات من القرن الماضي على تأسيس معهد في إطار المركز الوطني للبحث العلمي

(C.N.R.S)لدراسة المخطوطات دراسة كوديكولوجية سموه »معهد البحث وتاريخ النصوص«.
وكانت الشعب البارزة فيه هي: شعبة المخطوطات اليونانية، وشعبة المخطوطات اللاّتينية، وشعبة المخطوطات الفرنسية الوسيطية ومخطوطات عصر النهضة([3]). وقد أضافوا فيما بعد شعبتين لدراسة المخطوطات العبرية والعربية لما تبين لهم أن الدراسات الكوديكولوجية الخاصة بمخطوطات الشرق الأوسط شبه منعدمة؛ كما تأكد لديهم أن مناهج البحث والقواعد التي وضعوها لدراسة المخطوطات الغربية قد يمكن تطبيقها في دراسة المخطوطات الشرقية([4].[

وقد جهزوا هذا المعهد الفريد بمختبر علمي لدراسة المخطوط دراسة علمية مستعيرين من أجل ذلك تقنيات علم الفيزياء وعلم الكيمياء لصيانة المخطوطات والحفاظ عليها كالتحليل الكيميائي للأمدة والأحبار والأوعية؛ كما استعملوا ما يسمى بالهولوغرافيا (h.l.graphie) التي تمكنهم من المقارنة بين الخطوط والبتارديوغرافيا (bétaradi.graphie) لمعرفة ما يسمى بالفليغران (filigranes) أو علامات الكاغد المائية وغيرها من التقنيات التي حلت مجموعة من المشاكل المطروحة على مستوى المخطوط كان حلها من قبيل المستحيل حتى الآن كقراءة الحروف التي اندثرت وفك رموز النصوص التي محيت أو انطمس بعضها لسبب من الأسباب.

وعلى الرغم من إحداث شعبة في هذا المعهد لدراسة المخطوط العربي كوديكولوجيّاً، فإن النتائج لم ترق إلى ما وصلت إليه باقي الشعب، بما في ذلك الشعبة العبرية. فبقيت الكوديكولوجيا العربية حقلاً بكراً لم يهتم به إلاَّ في العقود الأخيرة من القرن الماضي، وذلك من خلال مجموعة من الدراسات القليلة التي نشرها ثلة من المستشرقين الهولنديين أو بعض الفرنسيين أمثال فون كننسفلد (V.n K.ninksfild)وفيتكام (Withkam) وفيكرز (Wiguers) وديروش (Dér.che) وآخرين يمكن عدهم على رؤوس الأصابع. وأما تلكم الدراسات حول المخطوط العربي التي وضعها بعض الرواد من المستشرقين والمحدثين من العرب منذ النصف الأول من القرن الماضي كـ"الخطاطة العربية(Arabic Pale.graphy) "، 1905م) للعالم موريتز (M.ritz) و"الكتاب الإسلامي " (The Islamic B..k)لمؤلفيه توماس أرنولد (T. Arn.ld) وأدولف كرومان .A) (Gr.hmann و"الكتاب العربي (The Arabic B..k) "للعالم الدنماركي جوهانيس بدرسون (J.hannes Peders.n)و"الكتاب العربي المخطوط إلى القرن العاشر الهجري" لصلاح الدين المنجد وغيره من ذوي الاختصاص كقاسم السامرائي في كتابه عن علم الاكتناه . أقول إن تلكم الدراسات وهذه الأعمال على أهميتها واهتمامها بالمخطوط العربي، من حيث النشأة والنساخة

والتجليد والوراقة والخط وغيرها، لم تجب عن التساؤلات التي يطرحها علم المخطوط الحديث وفق مكوناته وقواعده وأساليبه. شأن هؤلاء المحدثين عرباً ومستشرقين شأن أسلافنا العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ فيما يخص العناية بالمخطوطات. فلا يستطيع أحد أن ينكر أياديهم البيضاء على هذا التراث؛ فقد قيدوا أوابده ووضعوا كتب الفهرسات والتراجم والمؤلفات التي اهتمت بالكتاب المخطوط كتابة وقلماً وصناعة وتجليداً وتذهيباً واصطلاحاً وتجارة وما إلى ذلك مما عبر عنه الأقدمون بالوراقة التي جعلها ابن خلدون شاملة للانتساخ والتصحيح والتسفير وسائر الأمور الكتبية والدواوين، غير أنها لم تتعرض للتقنيات والجزئيات والحفريات والمعالجات التي تفرضها مقومات الكوديكولوجيا الحديثة ومكوناتها.

ما مكونات هذا العلم إذن؟ وما العناصر الأساسية التي يجب معالجتها وتناولها لتأسيس علم مخطوط عربي؟ وما المهام والوظائف المنوطة بهذا العلم؟

إن مكونات علم المخطوط العربي وعناصره ووظائفه لا تختلف كثيراً عن مكونات الكوديكولوجيا الغربية، ما دامت المناهج والقواعد الحديثة التي وضعت لدراسة المخطوط الغربي يمكن تطبيقها على المخطوط الشرقي، بالرغم من الفوارق الكثيرة بين الشرق والغرب. وأول مهام الكوديكولوجي غربياً، كان أو شرقياً، هي وضع القوائم والكشافات لمجموعات مخطوطات الخزائن تمهيداً لوضع فهارس علمية مبنية على قواعد ثابتة. فإذا خطا الغربيون خطوات مهمة في هذا المجال، فإن التراث العربي المخطوط ما زال يفتقر إلى كشاف شامل لهذا التراث بالرغم من الجهود المبذولة هنا وهناك في مختلف جهات المعمور. ولتحقيق هذه الغاية، يجب القيام بمسح شامل لهذا التراث على مستوى البلاد العربية، ثم البلاد الإسلامية([5]). ثم نختم بإحصاء للمخطوطات العربية المحفوظة في خزائن العالم. وقد يمكن هذا الإنجاز من تحقيق بعض العناصر الأساسية لتأسيس علم مخطوط عربي، وهي وضع فهارس علمية أولاً، ثم وضع الفهارس الموحدة (catal.gues c.llectifs) التي تعتبر اللبنة الأولى لوضع فهرس دولي موحد يضم جميع المخطوطات العربية، ثم القيام بفهارس حسب الفنون كفهارس المخطوطات الطبية والفلاحية وكتب الصنعة وغيرها، ثم فهارس بالمخطوطات الفريدة والنادرة، وأخرى بالمخطوطات المؤرخة([6])، وأخرى بالمخطوطات القديمة أو الأصلية، وأخرى بالمزخرفة والخزائنية، أو فهارس خاصة بمخطوطات عالم واحد مختصرة أو مطولة، إلى غير ذلك من الفهارس العلمية التي نراها وضعت لتراث الغرب. وظهور بعض الأعمال من هذا القبيل في جهة من الجهات وبشكل انفرادي قد لا يعني أننا في الطريق القويم للقيام بهذه المهمة الأساسية من مهام علم المخطوط العربي. وإذا

كانت الفهرسة من عناصر علم المخطوطات القليلة التي تمارس في العالم العربي والتي يمكن اعتبارها مكوناً أساسياً من مكونات علم المخطوط، فإن اختلاف المناهج وتضارب الآراء بين المشتغلين بها من حيث النمط المتبع والبطاقة النموذجية لا تساعد على البت في هذه القضية بتاً نهائياً يمكننا من المرور إلى باقي المكونات كالقيام بوضع ما يسمى بـ»فهارس الفهارس.»

إن أول محاولة شبه رسمية لهذا النوع من الفهارس هي تلكم المحاولة التي قام بها المستشرق الألماني بروكلمان في الجزء الأول من كتابه الكبير "تاريخ الأدب العربي"، بالرغم من ندرة الفهارس الخاصة بالتراث العربي المخطوط حتى نهاية القرن التاسع عشر وهو الزمن الذي وضع فيه هذا المستشرق كتابه (1898 م). وقد تتابعت المحاولات إلى الثمانينيّات حين وضع العالم العراقي كوركيس عواد كتابه "فهارس المخطوطات العربية في العالم" مروراً بالمستشرق الفرنسي فاجدا في كتابه "دليل الفهارس وقوائم المخطوطات العربية" (1949 م) وويسمان (Huisman) في كتابه "المخطوطات العربية في العالم"، ثم كتاب فؤاد سيزكين "تاريخ التراث العربي". ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى المحاولات الطموحة في هذا المجال التي يضطلع بها كل من معهد المخطوطات العربية ومعهد آل البيت لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن.

ويبقى التراث العربي المخطوط حتى الآن مفتقراً لهذه العملية التي من شأنها إعطاء فكرة عن أرصدة المخطوطات العربية في العالم، وبالتالي تبرز إلى حد ما وضعية هذا التراث ومدى اهتمام أهل الاختصاص به. ومما يدخل في صميم الكوديكولوجيا القيام بوضع فهارس النساخ والمجمعين وهواة الكتب ومجموعات المخطوطات أو الخزائن. لا يخفى على الباحثين في التراث القديم وأصحاب التحقيق تلكم المشاكل التي صدرت عن النساخ طوال التاريخ الإسلامي. إن جهل النساخ والسرعة في النسخ واختلاف الأذواق والمذاهب والعقائد والاتجاهات السياسية وغيرها وما ترتب على ذلك من تصحيف وتحريف وسقط وخلل. كل ذلك خلَّف أثره في التراث المخطوط، الأمر الذي يدعو إلى القيام بمجموعة من الأعمال العلمية لمعالجة هذه المشاكل يكون أولها وضع فهارس للنساخ ومونوغرافيات خاصة بهم تمكن الكوديكولوجيين من التعريف بهم والبحث في حياتهم وسلوكهم وتخضعهم لنظرية الجرح والتعديل على غرار ما فعل المحدثون برواة الحديث. أما البحث في الخزائن ومجموعات الكتب وفي أصحابها ومالكيها وفي مصادر المخطوطات وتناقلها بين الخزائن والدول والأشخاص وما شابه ذلك قد يمكن المختصين من الإجابة عن بعض التساؤلات التي تؤرقهم وتشغل بالهم مثل التساؤل عن الأيدي التي تناولت الكتاب وتصفَّحته وتملكته وقرأته وحشته وعلقت عليه،

وعن المكتبات أو المجموعات الخطية التي كان ينتمي إليها المخطوط، ثم عن الطرق التي مر منها في تناقله بين هذه المجموعات إلى أن استقر به الأمر في خزانة معينة. إن من شأن هذا البحث أن يساعد على اكتشاف الأسباب التي دعت إلى ضياع مخطوط معين بعدما استفاد منه المؤلفون ونقلوا منه أو اقتبسوا. وما أكثر تلكم المؤلفات التي اقتبس منها وضاعت مع الزمن! وقد حاول بعض المحدثين من الغيورين على هذا التراث أن يعملوا على إيجاد المفقود من الموجود، فجمعوا مجموعات من النصوص التي فقدت أصولها من بطون ما هو موجود من كتب التراث، فسلكوا طرقاً ووضعوا قواعد للبحث عن هذه المصادر وتلكم النصوص([7]). ويدخل في هذا الإطار البحث عن أسماء مؤلفي الكتب المجهولة المؤلف، وما أكثرها في كتب التراث العربي! إن كتب التراجم والفهرسات والمؤلفات البيبليوغرافية العربية ملأى بالمصنفات التي لا نعرف لها مؤلفاً. وقد يمكن العثور على هذه الأسماء، بالرغم من الصعوبات التي يفرضها مثل هذا البحث الذي لا يستطيع خوض غماره إلاّ ذوو التجربة من جهابذة العلماء المتمرسين على التعامل مع التراث.

وفي هذا الإطار كذلك، تطرح قضية مصطلح علم المخطوط، وهو حقل ما زال بكراً. إن غياب معجم بهذه المصطلحات يترتب عليه القصور في الوصف وعدم الدقة في الفهم والتعريف. فما أوفر تلكم الألفاظ الخاصة بالمخطوطات لا نفهم معناها، منها الفارسي والتركي والهندي والعربي! وما أكثر تلكم الحالات التي تواجهنا في مجال الاختصاص نحتاج إلى الألفاظ للتعبير عنها والتعريف بها!

إن معالجة هذه القضايا وما ماثلها مما يدخل في صميم علم المخطوط من طرف ذوي التجربة والعلم الواسع والإحاطة الكاملة بكتب التراث والتعمق في معرفة الكاغد والحبر والجلد والرق والتسفير والأقلام والزخرفة والتصوير والخطوط وما إلى ذلك هي التي تقعد العلم وتضبطه وتقننه. يقول أحد المحدثين: »إن علم المخطوطات تجارب تحتاج إلى التقعيد، وقواعد تحتاج إلى المصطلحات، واصطلاحات تحتاج إلى التعريفات، وضوابط تحتاج إلى التقنين، ومعارف تحتاج إلى التدوين، وخبرة تحتاج إلى التلقين«. ومما يدعو إلى التفاؤل هو تلكم المبادرات التي تجلت في إقامة ندوات دولية خاصة بمخطوط الشرق الأوسط نال منها المخطوط العربي حظه كالندوة الدولية عن الكوديكولوجيا في باريز سنة 1984 م، وندوة اصطانبول سنة 1986 م، وندوة كلية آداب الرباط سنة 1992 م عن "المخطوط العربي وعلم المخطوطات"، وندوة مؤسسة الفرقان بلندن سنة 1993 م: "دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر"، وندوة باريز سنة 1994 م، والندوات الأخيرة في إيطاليا وفي معهد المخطوطات بالقاهرة الذي لا يستطيع أحد أن ينكر جهوده في هذا المجال. كل

هذه الندوات قد تمخضت عن أعمال طبع معظمها كما طبعت إلى جانبها أعمال تدخل في صميم الكوديكولوجيا العربية كالكتاب الذي نشرته ثلة من الفرنسيين بإشراف الأستاذ ديروش عن الكوديكولوجيا العربية و"معجم المصطلحات التقنية والببليوغرافيا" *الذي نشره العالم الكندي آدم كادجيك .(A. Gacek) وبالرغم من هذه المحاولات الطموحة الفردية، فإن علم المخطوط العربي ما زال يحبو. وإذا أردنا له الوقوف على رجليه ويخطو خطوات علمية ناجحة على غرار ما حدث عند الغربيين، فلابد من إحداث مؤسسة على مستوى الفضاء العربي تكون مرجعاً يرجع إليه للبتِّ في القضايا سالفة الذكر وفي غيرها ومكاناً تتداول فيه المعالجات المقترحة الخاصة بهذه القضايا، مستفيداً من التجربة الغربية في مجال الكوديكولوجيا، متنوراً بعقول أسلافنا النيرة ومستقطباً لذلك مجموعة من خيرة أهل العلم وذوي الاختصاص والتجربة المعاصرين المتمرسين بالتعامل مع المخطوطات الذين مات معظمهم وبدأت تجنح للغروب شمس من بقي منهم. وإن غياب هذه المؤسسة التي يمكن أن تكون البؤرة التي تصب فيها جهود هؤلاء الأعلام والتي يمكن اعتبارها بمثابة المحتسب يعني تشجيع مواصلة الأبحاث الفردية في مجال لن يتقدم ويتطور إلاّ في إطار العمل الجماعي والاستمرار في ترك الحبل على الغارب في ميدان من الميادين الحيوية في صناعة العلم وتخريجه.

الهوامش:

([1])كان العلماء الألمان يقولون »الباليوغرافيا التطبيقية أو التاريخية (Palé.graphie) »للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ هاندشغيفتنكوندە(Handschriftenkunde) ، واحتفظوا بلفظ »باليوغرافيا« لعلم الخطوط القديمة.

([2]) Albert Der.lez, C.dic.l.gie des manuscrits en écriture humanistique sur parchemin, p. 7.

([3])هناك جماعة للبحث في الإنسانيات الفرنسية (l'humanisme français) في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين تدرس مخطوطات هذه الفترة دراسة كوديكولوجية.

([4])وقد نشروا مجموعة من الأبحاث المهمة أفاد منها علم المخطوط الحديث. والدليل على ذلك هو أنهم درسوا التراث اليوناني المخطوط بالمناهج نفسها التي درسوا بها التراث اللاّتيني، بالرغم من كون التراث اللاّتيني تراثاً موروثاً وملكاً لهم، وكون التراث اليوناني تراثاً وافداً.

([5])نشير هنا إلى الاستبانة التي وضعتها الإسيسكو عن مشروع حماية المخطوطات وصيانتها في الدول العربية والإسلامية.

([6])إن التاريخ الدقيق أو التقريبي للمخطوطات يمكن من إعطاء قواعد متينة لتاريخ النصوص؛ كما يعمل على تقدم الدراسات الباليوغرافية التي تبحث في علم الخطوط وتاريخها وتطورها.

([7])عثر على كثير من النصوص الشعرية والنثرية والفقهية في بطون الكتب، خاصة منها ما يسمى بـ»المؤلفات الموسوعية«، وهي نصوص منقولة أو مقتبسة من كتب ضاعت ولم نعرفها إلاّ بالاسم. انظر: حكمت بشير ياسين، القواعد المنهجية في التنقيب عن المفقود من الكتب والأجزاء التراثية.

حدود علم المخطوط:

اختلف الباحثون في رسم حدود علم المخطوطات، فبينما توسّع البعض في حده، بأن ضمّ إليه كل ما يتصل به قضايا التاريخ والصناعة، والترميم والتصوير والتحقيق وغيرها، وبعضهم قيّده بالجانب المادي والصناعي المتمثل في حوامل النص المتمثلة في: الورق، الحبر والقلم، التجليد،الخط، وخوارج النص: مثل التمليكات والوقف، الاملاءات، التعقيبات... وغيرها. ويبقى علم المخطوط فتيا لم تترسم حدوده بشكل نهائي.

حوامل النص:

الورق:

أدوات الكتابة في المخطوطات وتطورها

كريم نصيف الجميلي

قبل أن يعرف العرب الأقلام وأدوات الكتابة كانوا يستعملون أدوات حادة ينقشون بها على الحجارة والطين قبل اكتشاف الورق والبردي وبعد الكتابة على البردي اكتشفوا أن هناك عيوب من خلال الكتابة عليه أن بإمكان أي شخص محو النص المكتوب عليه وإعادة الكتابة دون أن يترك اثر مما يسهل عملية التزوير بتغيير النص المكتوب، وبعدها استعملت الأنواع المختلفة من الجلود المدبوغة للكتابة في الجزيرة العربية قبل الإسلام حيث سميت الجلود المستعملة في الكتابة الأديم أو الرق وهي مصنوعة من جلود البقر والإبل والغنم والحمير الوحشية والغزلان والحيوانات المختلفة الأخرى وتدبغ هذه الجلود وترقق لتصبح ناعمة رقيقة ملساء يمكن الكتابة على وجهيها وقد اشتهر الرق المصنوع من جلد الغزال في كتابة المصاحف كما استعمل الرق الأبيض والأحمر والأزرق وكان أفضلها الرق الأبيض لسهولة الكتابة عليه وعند اكتشاف البردي المصري وبعد الورق السمر قندي تغير كل شيء

وأصبحت الأقلام وادوات الكتابة والأحبار المستخدمة لهذا الغرض تختلف عما كانوا يكتبون بها من قبل فاخذ القلم حيزا كبيرا في الكتابة وخاصة بعد جمع وكتابة القران الكريم من صدور الحفاظ ومن المواد المختلفة التي كان مكتوبا عليها قبل اختراع الورق والذي وردت لفظة القلم باكثر من نص في القران الكريم بسم الله الرحمن الرحيم(ن والقلم وما يسطرون)وكانت الأقلام في بادئ الأمر تصنع من السعف والقصب والغاب حيث استخدم القلم في الكتابة على الورق للتدوين مما ساعد على تطور صناعة المخطوطات في العالم العربي والإسلامي ويعود الفضل في اختراع مادة الورق إلى الصينيين الذين أنتجوه في القرن الأول الميلادي مستخدمين في صناعته سيقان نبات الخيزران المجوفة والخرق البالية أو شباك الصيد حيث كانت تغسل هذه المواد جيدا ثم تطحن في مطاحن خاصة حتى تتحول إلى عجينة طرية ثم تضاف أليها كمية من الماء حتى تصبح شبيهة بسائل الصابون وبعد عملية تصفية دقيقة تأخذ الألياف المتماسكة بعناية لتنشر فوق ألواح مسطحة لتجفف بواسطة حرارة الشمس وبعد

ذلك تصقل صحائف الورق بواسطة خليط من النشا الدقيق وتجفف من جديد لتصبح بعد ذلك جاهزة للاستخدامات في الكتابة والتدوين وقد نقل المسلمون صناعة الورق من الصينيين وذلك عندما تمكن المسلمون من الاستيلاء على سمر قند عام 751ميلادية واتوا بعدد من الصينيين الحرفيين في صناعة الورق الذين قاموا باطلاع العرب على أسرار صناعته ومنذ ذلك الوقت أدخلت صناعة الورق إلى بغداد ومنها انتقلت إلى سوريا ومصر والمغرب العربي ثم إلى الأندلس التي كان لها الفضل الأول في نشر صناعة الورق في أوربا وتطورت صناعة الورق في إيران بشكل اكبر من مثيلتها في الأقطار الأخرى حيث استطاع الإيرانيون في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي أن يصنعوا ورقا فاخرا من الحرير والكتان كما اعتنوا بضغطه ليكتسب بعض الألوان وتلميعه ليليق بتدوين دواوين الشعر الفارسية التي كانت تكتب عليه بالخطوط الجميلة وتذهب بالصورة الملونة التي كانت تحلى بها المخطوطات وتشهد مجموعة المخطوطات الفنية التي أنتجت في إيران وتركيا والهند والعراق ومصر على ماوصلت أليه الفنون الإسلامية من تطور في التصميم ودقة في التنفيذ وروعة في الإخراج .

الأقلام :من أهم الأدوات الكتابة في المخطوطات القلم الذي عرف العرب منه أنواع كثيرة منها قلم السعف وقلم العاج وقلم القصب والريشة المعدنية وكان أفضلها وأشهرها القلم المصنوع من القصب وذلك لسهولة بريه لتكون ذات سمك معين مسطح الوجه وذات شق في الوجه لتسمح بانتقال الحبر من الدواة بواسطة القلم (القصبة)إلى الورق.

القلم:

للقلم منظومات مجازية وواقعية، وهي منظومات تم التعارف عليها عبر تطور الثقافات والحضارات والآداب والفنون والسياسات العامة للشعوب . فتم أنسنة القلم لحاجات سياسية على الأغلب الأعم، ومن ثم وطنية وأدبية، لما للقلم من تواشج حميمي مع الحياة وتعاقب الحضارات الإنسانية . فهذا الكائن الصغير أدهش البشرية بقدرته على التدوين وأرشفة الحضارات والثقافات، فكان سجلاً أميناً لما تركه الأسلاف للمستقبل الذي حظيت كثيرٌ من الأجيال بتعقب ما تركه الماضي إلى الحاضر، ولا تزال العديد من المخطوطات والأثريات والرسومات البدائية والخطوط الغامضة تحتاج إلى مكتشفين ومعقبين واختصاصيين لحل الأثر تلو الأثر الذي كتبه القلم أو

دونته الريشة أو خطّته قصبة صغيرة في يومٍ ما وزمنٍ ما وحضارةٍ ما . لذلك وُصف القلم بأنه مجموعة منظومات أخلاقية تم أنسنتها تعبيراً عن مختلف، فيها من المجاز ما هو قادر على أن يكون توصيفاً لحالة ما أو شخصية ما ؛ كأن نقول «قلم حر» وصفاً لكاتب غير انتهازي أو « قلم أجير» وهو الكاتب الذي يشيع حالة سلبية لغيره من منظمات سياسية أو غيرها . و» قلم وطني» وصفاً لكاتب يضع هموم وطنه في مداد حبره ويخط نشيد البقاء لذلك الوطن . وما إلى ذلك من تسميات وتوصيفات تؤكد قدرة القلم على النطق والاستنطاق.

تاريخية القلم .. الإصبع هو الأول في الكتابة!... فقد قادته الفطرة أن يؤرخ مشاهداته عبر خطوط ورسمات بدائية، وذلك بغمس أصابعه في دماء الحيوانات ليخط أو يرسم على الصخور وجدران الكهوف . فحلّت الدماء محل الحبر في تلك الأوقات الموغلة في القِدَم، وهذه البداية الدموية لها ما تؤكدها مكتشفات كهوف الصحراء الكبرى وأسبانيا وجنوبي فرنسا مثلاً . على أن حبر الدم هذا كان البداية الفطرية لمضي الإنسان نحو آفاق الاكتشافات المهمة التي توّج بها وجوده وخلوده الطويل في منظومة المجتمعات التي تواجد فيها . فمن الإصبع الأول تحول الإنسان إلى استعمال عيدان الخشب وريش الطيور كأقلام يغمسها في الأصباغ الملونة ليكتب أو يخط بها بديلاً عن أصابعه، فالطبيعة وفرت له ما هو مثالي نسبياً في حياة الغاب التي كان يعيشها تحت وطأة ظروف غاية في البدائية والفطرية.، وكانت هذه هي الخطوات الأولى للكتابة التي يقدرها العلماء على مايزيد على 35 ألف سنة، وسميت تلك الرسوم بالكتابة الصورية أو التصويرية كحالة تعبيرية أولية بديلاً للكتابة الحروفية التي لم تكن تُعرف بعد .

السومريون هم أول من اخترع قلم الكتابة في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وكان القلم السومري عبارة عن عود من الخشب يكتب به على ألواح من الطين اللزج، ثم يجري تجفيف هذه الكتابة الطينية بوضع الألواح في الشمس وأطلق العلماء على هذه الكتابة اسم (الخط المسماري)؛ ثم استخدم السومريون القلم المدبب، وقد صنعوه من الاغصان الصغيرة للأشجار بعد تهذيبها وجعلها أقلاماً مناسبة للكتابة على ألواح الطين الطرية التي تجف فيما بعد، وكان ذلك حوالي إلى عام 3500 قبل الميلاد .

واقتبس المصريون القدماء أدوات مشابهة لذلك وصنعوا تلك الأقلام من نبات القصب، وكان ذلك منذ 5500 عام تقريبا .ومنذ ما يزيد على ثلاثين قرنا قدم الكنعانيون أول الأبجديات في التاريخ الإنساني بحسب خبراء الآثار، ومع انتشار الأبجدية تدرج التحسين في أدوات الكتابة من ريش الطيور والقصب إلى اختراع الريشة المعدنية ذات

المسكة، وكان الرومان ومن قبلهم اليونان اتخذوا أقلامهم من ألواح خشبية ذات أسنان مدببة مغطاة بالشمع، وكذلك استخدام ريش الطيور في الكتابة في العصور الوسطى في الشرق والغرب.

واستخدم الاغريق في بلاد اليونان قديمآ ريش الطيور في الكتابة وذلك في عام 500 قبل الميلاد وادخل استخدام اقلام الريش إلى أوروبا، وصارت هذه الأقلام أدوات الكتابة في البلاد الإسلامية فيما بعد .واستمرت الريشة أداة للكتابة زمناً طويلاً حتى ابتكر البريطانيون الريشة المعدنية عام 1830 في مدينة برمنجهام التي عرفت لفترة طويلة فيما بعد كمهد لأدوات الكتابة وكان اقتصاد المدينة قائماً على صناعة الورق والأقلام بأنواعها المختلفة حتى وصل الأمر إلى صناعته نحو 4 آلاف موديل من ريشة الكتابة في منتصف القرن التاسع عشر ؛ ويقال إن الكيميائي العربي جابر بن حيان هو صاحب فكرة اختراع القلم الحبر ذي الخزان، ولكن الفكرة لم يكتب لها التحقيق في عصره.

وكانت هناك تجارب بدائية لصناعة مثل هذا القلم في الأندلس؛ كما اخترع العالم العربي عباس بن فرناس في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي قلم الحبر وكان على شكل اسطوانة تتغذى بحبر سائل يستخدم للكتابة، ثم أمر المعز لدين الله الفاطمي عام 365هـ -579م بصنع مثله ؛ بعدها صنع ابن صاعد الرحبي قلم الحبر السائل من أنبوب متخذ من الحديد، وجعل له من جسمه سنا مقطوطا ومشقوقا، وكان أنبوب هذا القلم يزود بالحبر من ذيله، وله غطاء حلزوني محكم، وكان ما به من حبر يكفي الكتبة والخطاطين للكتابة به لمدة شهر.

النون .. الدم الذي صار حبراً

النون هي الدواة كما وردت في القرآن الكريم . والدواة هي المحبرة في تسمياتنا الحديثة. وكان القلم يحتاج إلى هذه النون كي يتغذى من سائلها ليكتب أفكار غيره وخلجاته . لكن الحبر شأنه شأن أي اكتشاف حديث مر بمراحل وتحولات وصناعات حتى تعددت ألوانه ومنابعه، وأقدم حبر عرفه العالم كان الحبر الهندي أو الصيني وكان يصنع من السخام.

وقد عرف العرب الحبر كمداد للكتابة، وبخاصة على أوراق البردي والجلود إلى أن عرفوا الورق من الصين .وقد استخدم العرب عناصر مختلفة في صناعة الحبر، بعضها معدني كالزاج، وبعضها نباتي كالعفص . وكان العرب يعتمدون في صناعة الحبر على السخام الذي يتكون من احتراق النفط، أو من الزيوت والدهون النباتية كزيت الكتان.

وأحيانا كانت العناصر المستخدمة في الأحبار العربية تطبخ على النار فيغلي في الماء أو في ماء الآس ثم يضاف إليه الصمغ العربي والزاج القبرصي مع شيء من الدخان.

صناعة القلم .. تاريخ مشوق من الجمال

كانت الأقلام عند السومريين القدماء من أهل العراق من الحديد أو الخشب أو القصب ليضغط بها على الطين لرسم الخطوط المسمارية وفي مصر كتب الفراعنة على الأحجار بأقلام النحاس والحديد ونَقَشوا أدقَّ الصور وكتبوا على البردي بقلم البوص واستخدم العربُ في الجاهلية القلمَ في التدوين، واستخدم المسلمون لبّ الجريد الأخضر في صناعة الأقلام، كما كان استخدام القصب في صناعتها سائدًا لما له من مزايا، فالأقلام المصنوعة من القصب تظهر قواعد الخط وهي سهلة الاستعمال.

وقد تنوعت الأقلام عند المسلمين وبدأت هندسية الحروف ويقال إن الأقلام عند المسلمين انتهت إلى اثني عشر قلمًا منها: القلم الجليل، وهو أول ما ظهر في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية وكان يُستخدم في الكتابة في المحاريب وعلى أبواب المساجد وجدران القصور ونحوها، وهو ما يسمى الآن بالخط الجلي لأنه أكبر الأقلام وأوضحها، ومنها أيضًا الطومار وكان هذا القلم لتوقيع الخلفاء على التقاليد والمكاتبات والكتابة إلى السلاطين والعظماء.

وقلم مختصر الطومار وبين ثلثي الطومار، وكان لكتابة اعتماد الوزراء والنواب على المراسيم ولكتابة السجلات المصونة، وقلم الثلثين وكان يُستعمل للكتابة من الخلفاء إلى العمال والأمراء، وقلم المدور الصغير وكان لكتابة الدفاتر ونقل الحديث والشعر، وقلم العهود وكان لكتابة العهود والبيعات، وقلم غبار الحلبة وكان لكتابة بطائق الحمام الزاجل.وهناك أيضًا من أنواع الأقلام التي استخدمها وصنعها المسلمون قلم توقيع الإجازة وسمي بذلك لأن الخلفاء والوزراء يوقِّعون به.

وقلم الرقاع وهو من الأقلام القديمة التي استعملت في ديوان الإنشاء، وهناك قلم الثلث وهو ثلث الطومار واستُعمل لكتابة العنوان للكتب المؤلفة وأوائل القرآن الكريم وتقسيمات أجزاء الكتب وكتابة اللافتات التي يُكتب عليها أسماء أصحاب الحوانيت، وكذلك قلم النسخ، وسمِّي بذلك لأن الكتَّاب كانوا ينسخون به مؤلفاتهم، وقلم الرقعة، والقلم الفارسي وكتب به الخط التعليق.

الصناعة .. الباركر في جبهات القتال

أقلام الرصاص والحبر والجاف أنواع مختلفة، ولكن لهدف واحد هو الكتابة، وطيلة سنوات التجريب القديمة والى اليوم والأقلام تكتسب بداعة في تصاميمها الحديثة وصناعاتها ؛ وعادة ما نذهب إلى التاريخ لتتبع الأثر الصناعي ومحاولات العلماء في تقديم النافع للإنسان ؛ وهذا التاريخ سنُداخل فيه التواريخ والأسماء واختلاف الأقلام لأجل حصرها في زاوية الإبداع الواحد .

أرشيف التاريخ يحيلنا إلى عام 1880 حيث صنّع قلم الحبر لأول مرة وفي عام 1944 صنّع قلم الحبر الجاف .وهذا الأخير اخترعه المجري لاديسلاو جوزيف بيرو، أما الأشهر فهو لويس وترمان مخترع قلم الحبر الذي حمل اسمه ماركته الشهيرة (وترمان) وصنّع وترمان أقلاماً عالية الجودة، متوازنة، مغطاة بالذهب والفضة. عندما اجتاحت الأقلام المدورة الرأس السوق بعد عام 1945 لم تفقد أقلام وترمان مكانتها بسبب جودتها العالية، فصارت تُستخدم لتوقيع العقود بخط جميل من دون ترك أي لطخة حبر على الورق، أما الفرنسي جاك كونتيه فقد اخترع قلم الرصاص .

شهدت صناعة الأقلام قفزة جديدة عندما اكتشف الجرافيت في مقاطعة يوركشاير البريطانية، وعرف العالم لأول مرة ما سُمي باسم (القلم الرصاص) رغم أن عنصر الرصاص لا يدخل في تركيبه على الإطلاق، وكانت القفزة الحقيقية في صناعة الأقلام من نصيب البريطانيين أيضاً، عندما تم ابتكار القلم الحبر بشكله التقليدي المعروف حاليا، أي القلم الذي به خزان يملأ بالحبر السائل، وكان ذلك عام 1864 .

وبدأت شركات كبرى تدخل مجال تصنيع الأقلام ومنها شركة (باركر) و(شيفر) و(وترمان) و(الإستبروك) و(التيكو) وغيرها من كبريات الشركات العالمية. وما يهم هنا القلم (باركر) ذائع الصيت الذين يسمونه (المصاص) ومخترعه « جورجي باركر» الذي كان يعمل مدرساً للتلغراف، وخلال الحرب العالمية الأولى عقدت الحكومة البريطانية مع (باركر) صفقة كبيرة لتزويد الجنود البريطانيين المقاتلين بهذه الأقلام.

وقد اجتذب هذا القلم الأنيق بعض المؤسسات الدولية بينها الأمم المتحدة التي قررت توقيع جميع الاتفاقيات بواسطة هذا القلم، كما اتخذته قلعة ويندور الملكية لبريطانية قلماً رسمياً لها .

هناك تجارب أميركية أجريت في الخمسينات من القرن الماضي توصلت إلى اختراع الحبر الذي يجف بمجرد كتابته، وفي عام 1951 ظهر في أميركا قلم شهير باسم (باركر آيه) فكان التطور التقني الأخير في صناعة أقلام الحبر

السائل التي سرعان ما تحولت بدورها إلى متحف التاريخ الحديث! فقد ظهر القلم الأكثر انتشاراً على مر العصور.

وهو قلم الحبر الجاف الذي ابتكره عالم أميركي من أصل فرنسي وبدأت شركة (رينولدز) تصنيعه على نطاق عالمي واسع في عام 1953، فأحدث على الفور انقلاباً في صناعة أدوات الكتابة، وتفوق هذا القلم الجاف على أقلام الحبر السائل. ولكن اليابانيين استطاعوا أن يقدموا للعالم في السبعينات من القرن الماضي نوعاً مبتكراً من الأقلام وهو القلم (الفلوماستر) الذي يعتبر التطور الأخير في صناعة الكتابة.

قلم البوصة

يؤخذ القلم العربي (القديم) (البوصة) من القصب الذي ينبت على ضفاف الأنهار، وأجود أنواع القصب الهندي ذو اللون البني الضارب إلى السمرة . يُبرى ويُقط ثم يُشق بخفة من الوسط لينساب الحبر إلى السن بصورة منتظمة، ويحظى السن (المنقار) الذي يستعمل للكتابة بعد غمسه بالحبر بأكبر قدر من اهتمام وتجويد الخطاط الذي يبري رأس قلمه بدقة فائقة وحسب معيار يرتبط بعرض (سمك) رأس القلم لما لذلك من أهمية في تحديد نوع الخط المراد كتابته.

قلم الحبر الجاف

شاع استخدام هذا القلم في النصف الثاني من القرن العشرين، وآخر تطوير هذا القلم أيجاد حبر له سيولة تناسب هذا الاستعمال، وأول من نجح في تصنيعه (رينولدز) في شيكاغو بالولايات المتحدة الأميركية و(لازلوبيرو) في الأرجنتين عام ، 1945 وفى رأس هذا القلم جسم كروي تحيط به أخاديد دقيقة، وبتحرك القلم يدور الجسم الكروي وينساب الحبر.

قلم الرصاص

في عام 1564 اكتشف الجرافيت في منطقة كمبرلاند في شمال انجلترا، مما أدى إلى اختراع قلم الرصاص، وفي العام 1565 بدأ الناس يستخدمون أقلام الرصاص . حيث اخترع العالم الالماني « كارل جستنر « قلم الرصاص . وقد كان يتكون من الجرافيت الدقيق المحاط بعيدان من الخشب مربوطة بعضها ببعض . وتصنع اقلام الرصاص الآن من الصلصال أي الطين .

قلم الحبر الجاف

كان (لازلوبيرو) صحافيا من مدينة بودابيست في المجر وقد اخترع قلم الحبر الجاف ذي الكرة الفولاذية الصغيرة، حيث يسمح هذا القلم بانسياب الحبر بطريقة مناسبة مع السرعة في الجفاف عند الكتابة، وقد حصل هذا المخترع على براءة اختراعه حين استقراره في الأرجنتين باميركا..

التجليد(التسفير): صناعة تجليد المخطوط في التراث العربي[1]

مدخل:

لم تقتصر عناية الحضارة الإسلامية على العلوم الدينية والمعارف العقلية، وإنما امتدت لتشمل العلوم التطبيقية والصناعات اليومية، فضلًا عن العناية البالغة بالفنون والآداب، ومن أهم هذه الصناعات ذات الصبغة الفنية، صناعة المخطوط؛ مخزن المعارف وسجل التجارب والخبرات فى الحضارات الراقية.

وتُعدُّ صَنْعَة التجليد أحد أركان صناعة المخطوط، وهو المرحلة الأخيرة من إنتاج المخطوط، ويجتمع فيه الجانبان الصناعي والفني؛ فالصناعي المتمثل في عمليات الصَنْعَة وإجراءاتها، والفني المتمثل في زخارف الأغلفة وتذاهيبها. والمدخل الأول للفهم العلمي الصحيح لصناعة المخطوط، ومعرفة كيف كان العرب يصنعون المخطوط، وكيف كانت تتم عملية تجليده؛ هو استجلاء التدوينات والمؤلَّفات التي ترجع إلى عصر المخطوط وصناعته، وإلى المشتغلين بها من الصُّناع والمجلِّدين، إلى جانب الدراسات التاريخية والتطبيقية التي تدرس نماذج مما وصل إلينا من تجاليد المخطوطات وتختبرها.

صَنْعَة التجليد في المصادر التراثية العامة:

لم تسمح الطبيعة الصناعية والفنية لصَنعَة تجليد المخطوطات، والعمليات والإجراءات المتخصصة فيها من مثل الخزم والحبك وكسوة الجلد وما يتبعها من زخرفة وتذهيب ونحوها؛ لم تسمح لغير المصادر المتخصصة في الصَنْعَة بكبير تناول لها، على خلاف ما ورد في هذه المصادر غير المتخصصة (أو المصادر العامة) حول تاريخ التجليد وتطوره، وأشهر البلدان فيها، والمجلّدين وأخبارهم وتراجمهم، ونحو ذلك من مباحث تاريخ التجليد وتطوره؛ فكتب التاريخ والتراجم والبلدان وكتب الأدب والإنشاء وغيرها، تزخر بإشارات مفيدة لمن يتتبع تأريخ تجليد المخطوطات عند المسلمين، وثمَّت جهود مبذولة لاتُنكر في هذا المجال[1].

[1]-

لم تمنع هذه الحال من إشارات وإلماحات يسيرة وردت هنا وهناك في هذه المصادر (العامة) تُفيد في توثيق صَنْعَة التجليد عند المسلمين، من مثل الكلام على البلدان المشتهرة بالجلود الجيدة، وشهرة الدّباغة والتجليد (ومن أولى مراحل تجهيز كسوة الغلاف اختيار الجلد المناسب)؛ فمحمد بن أحمد المقدسي الجغرافي (ت 380 هـ)، وكان يتعاطى صَنْعَة التجليد، يورد مثلاً في كتابه ((أحسن التقاسيم)) أن مصر كانت تشتهر "بأديم جيد صبور على الماء، ثخين ليّن" [2]، "وكانت اليمن معدن العصائب والأُدُم والعقيق والرقيق" [3]، وقد ورد عن الجاحظ والهمداني والمسعودي وغيرهم إشارات مشابهة[4].

أمَّا عن صُنع الغراء المستخدم في التجليد (وهو كذلك من التجهيزات المهمة في الصَّنْعَة)؛ فقد ورد عند المقدسي أيضًا تفضيلات بين غراء النِّشا والأشراس واستخدامهما بين مُجلِّدي الكتب في الشام واليمن [5]، ووصفات أخرى في كتب الإنشاء مثل ((صُبح الأعْشَى)) و((الثَّغْر الباسم))[6].

ووصلتنا إشارات عن أوصاف لأغلفة وأوعية تُفيد في المواد التي كان تُستخدم في الصَّنْعَة وغيرها، من مثل ما ورد من أن كُتب الحلاج كان منها ما هو مُبطَّنٌ بالديباج والحرير [7]، وما ورد عند شهاب الدين المقري (ت 1041 هـ) من وصف مطوَّل للمصحف العظيم الذي أهداه أهل قرطبة لعبد المؤمن بن علي الموحدي (ت 558 هـ)، وما صنع له من صناديق وأغشية نفيسة مُحلَّاة بالذهب والفضة، ومُرصَّعة بأنواع الياقوت والحجارة الكريمة [8]، وكذلك السجل المخطوط الذي وصل إلينا لمكتبة جامع القيروان قديمًا فيه أوصاف في غاية الفائدة في معارفنا بهذا الصدد[9].

وأخيرًا ربما ما ورد عند المقريزي في خططه عن تخصيص بند مالي في ميزانية دار الحكمة "لمرمة ما عساه يتقطع من الكتب، وما عساه يسقط من ورقها"[10].

حافظتان من الحرير الأطلسي المزركش لحفظ المصحف المنسوب للإمام عليّ بمشهده بالنَّجف، مُهداة للمشهد في العصر الصفوي

المصادر الخاصة في صناعة المخطوط العربي:

حفظ لنا التراث العربي الزاخر عددًا من النُّصوص التي اختصت بصناعة المخطوط وتفاصيلها الفنية؛ من تركيب الأحبار، وصُنع الورق، والنِّساخَة، وغيرها، وقد تضمن بعضها أيضًا الكلام على صَنْعَة التجليد.

ويُعدُّ كتاب "عمدة الكُتَّاب وعُدَّة ذوي الألباب" أحد أشهر هذه المصادر التي اعتنت بصناعة المخطوط العربي بمختلف أركانها وتفاصيلها، وقد احتوى على فصل خاص بالتجليد يدخل في إطار دراستنا التفصيلية للمؤلفات المتخصصة في صَنْعَة التجليد، وسيأتي التعريف به. كما يُعدُّ كتاب "المخترع في فنون من الصُّنع" من مصادر

صناعة المخطوط، رغم أنه في الأصل من كتب الصِّناعات الشاملة، إذ اشتمل على صناعات أخرى منها صناعة الأسلحة والخيام والصابون وغيرها[11]. وقد اعتمد مؤلِّفه على كتاب "عمدة الكتاب" في فصوله الخاصة بصناعة المخطوط، ومنها فصل التجليد – على زيادات أصيلة فيه –، والذي يدخل أيضًا في إطار دراستنا وتعريفاتنا. وهذان الكتابان يُعدَّان الوحيدين في كتب صناعة المخطوط العربي الشاملة، التي أفردت لصَنْعَة التجليد فصولاً ومباحث.

أمّا كتب صناعة المخطوط الأخرى، فورد في بعضها إشارات من مثل لصق الدفاتر ونحوها [12] كالتي أوردها الرازي في مخطوطه المكتشف حديثًا "زينة الكتبة"، والذي يُعدُّ من بواكير مؤلفات الصناعة وأقدمها، والذي نقل عنه معظم من كتب في الموضوع، ومنهم "عمدة الكتاب" وغيره[13].

ورغم أن صَنْعَة التجليد تُعدُّ رُكنًا أصيلا من أركان صناعة المخطوط، ومن ثمَّ مؤلفات الفن، فإنها تميزت بشيء من الاستقلالية المهنية والمعرفية، وكثرة التفاصيل الصناعية والفنية، ممَّا دعا إلى إفرادها أحيانًا بمؤلَّفات خاصَّة بها.

المؤلفات المتخصصة في صَنْعَة التجليد:

إلى جانب المؤلَّفات الخاصة بصناعة المخطوط العربي، التي احتوت على فصول في صَنْعَة التجليد، وهي: "العمدة" و"المخترع"، أُفرد بالتصنيف مؤلفات متخصصة مستقلة من جانب صُنَّاع وفنيّين خَبَرُوا الصَّنْعَة، وكانت مهنتهم التي امتهنوها، وعرفوا قدرها وشرفها، وأحبوا أن يسجلوا معارفهم التي اكتسبوها بالتجربة والتعليم في هذه المؤلَّفات التي أبرزت في عنواناتها اسم الصَّنْعة (التَّسْفير) رأسًا.

وصل إلينا من هذه المؤلَّفات المفرَدة أربعة هي: ((التيسير في صَنْعَة التَّسْفير)) لبكر الإشبيلي (توفى سنة 628 أو629هـ)، و((صناعة تسفير الكتب وحلّ الذهب)) أحمد بن محمد السفياني (توفّي بعد سنة 1029هـ)، و((كيفية تسفير الكتب)) لعبد العزيز بن أبي بكر الرسموكي (ت 1065 هـ)، ونظم ((تدبير السفير في صناعة التَّسْفير)) لابن أبي حميدة (عاش بعد سنة 737 هـ).

هذا بالإضافة إلى مخطوط ورد اسمه في فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية بالمغرب (المطبوع والإلكتروني) [14]، وهو ((تقييد في كيفية تجليد الكتب)) لمجهول، تحت رقم (د – 1177)، وللأسف لم يستطع الزملاء العاملون في المكتبة أن يتوصلوا إليه، إما لفقده أو وضعه خطأً في غير مكانه – ولعله الأقرب – [15].

هذا ومن التراث المفقود:

منظومة في التَّسْفير، لأبي العباس أحمد بن الحسن بن يوسف الصالحي الزحلي الشفشاوني، الشهير بابن عرضون (ت 992 هـ)، والذي نقلت مخطوطتين من مخطوطات السفياني، عنها أربعة أبيات في آداب تبطين الكتب

[16]. وكذلك كتاب "التدبير في صناعة التسفير" لمجهول، نقلت عنه حواشي مخطوط الإشبيلي، وظاهرٌ أنّه غير نظم ابن أبي حميدة، لأن المنقول كلام منثور، كما نقلت عن شخص يُدعى نبيل بن نبيل الرُّعَيْني. وعسى الأيام أن تأتي لنا بهذه النصوص ونصوص أخرى مجهولة أو نُسخ أخرى للمؤلَّفات التي وصلتنا، تكشف المزيد حول صَنْعة التجليد.

---

[1] لا تعتمد الدراسات التاريخية للتجليد غالبًا على المصادر التاريخية فحسب، وإنما تجمع بينها والمصادر العملية من تجاليد المخطوطات التي تُخضع للدَرْس والتحليل، يُنظر مثلاً:

Sarre, F. Islamic B..kbindings؛ Arn.ld, Sir T.mas & Gr.hman, Adl.f. The Islamic B..k؛ B.sch, Gulnar K. Islamic b..k-bindings: twelfth t. seventeenth centuries؛ Sizirmai, J. A. The archae.l.gy .f medieval b..kbinding

الحلوجي، عبد الستار. المخطوط العربي: ص 231-247؛ القصيري، المهدي، سهام محمد. تجليد الكتب في مصر في العصر المملوكي؛ اعتماد يوسف. فن التجليد عند المسلمين؛ عبد الهادي، عدنان محمود. المخطوط العربي من بداية الحكم العثماني حتى ظهور الطباعة: ص 215-236؛ مؤذن، عبد العزيز بن عبيد الرحمن. فن الكتاب المخطوط في العصر العثماني: ص 270-320؛ الكلاوي، ناصر منصور. فنون تجليد الكتب في العصر العثماني في ضوء المجموعات الأثرية بمدينة القاهرة: دراسة فنية أثرية.

[2] المقدسي، محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص 203.

[3] السابق: ص 97.

[4] انظر: الحلوجي: ص 238-240؛ أبو سديرة، السيد طه. الحرف والصناعات في مصر الإسلامية: ص 367-374؛ رزق، عاصم محمد. مراكز الصناعة في مصر الإسلامية: ص 29، 64، 213، 258.

[5] المقدسي: ص 100.

[6] السحماوي، شمس الدين محمد (ت 868 هـ). الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم: 2/ 554.

[7] الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463 هـ). تاريخ بغداد: 8/ 714.

[8] المقري، أحمد بن علي. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: 605/1- 615؛ ويراجع أوصافه وغيره من المصاحف والربعات عند: المنوني، محمد. تاريخ المصحف الشريف بالمغرب. مجلة معهد المخطوطات العربية. مج 15، ج1 (1969): ص 17-19، وفي: القبس: 41/1-44.

[9] شبوح، إبراهيم. سجل قديم لمكتبة جامع القيروان. مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 2، ج 2 (1956): 339-372.

[10] المقريزي، أحمد بن علي (ت 845 هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: 503/2.

[11] قاري، لطف الله. الحبر والمداد في كتب الصناعات الشاملة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 45، ج1 (مايو 2011): ص 88-91.

[12] مخطوط دار الكتب المصرية: ق 84.

[13]Zaki, Mahm.ud. Early Arabic B..kmaking Techniques as Described by al-Rāzī in His Recently Disc.vered 'Zīnat al-Katabah'. Brill: J.urnal .f Islamic Manuscripts, v.l. 2/2, 2011: p. 223-234

[14] http://www.bnrm.ma

[15] الشكر موصول للأساتذة الأفاضل: السعيد بنموسى ومحمد سعيد حنشي، على معونتهم الكريمة.

[16] المنوني، محمد. تاريخ الوراقة المغربية: ص 86.

الحبر[2]:

قبل أن يعرف العرب الأقلام وأدوات الكتابة كانوا يستعملون أدوات حادة ينقشون بها على الحجارة والطين قبل اكتشاف الورق والبردي وبعد الكتابة على البردي اكتشفوا أن هناك عيوب من خلال الكتابة عليه أن بإمكان أي شخص محو النص المكتوب عليه وإعادة الكتابة دون أن يترك اثر مما يسهل عملية التزوير بتغيير النص المكتوب، وبعدها استعملت الأنواع المختلفة من الجلود المدبوغة للكتابة في الجزيرة العربية قبل الإسلام حيث سميت الجلود المستعملة في الكتابة الأديم أو الرق وهي مصنوعة من جلود البقر والإبل والغنم والحمير الوحشية والغزلان والحيوانات المختلفة الأخرى وتدبغ هذه الجلود وترقق لتصبح ناعمة رقيقة ملساء يمكن الكتابة على وجهيها وقد اشتهر الرق المصنوع من جلد الغزال في كتابة المصاحف كما استعمل الرق الأبيض والأحمر والأزرق وكان أفضلها الرق الأبيض لسهولة الكتابة عليه وعند اكتشاف البردي المصري وبعد الورق السمر قندي تغير كل شيء وأصبحت الأقلام وادوات الكتابة والأحبار المستخدمة لهذا الغرض تختلف عما كانوا يكتبون بها من قبل فاخذ القلم حيزا كبيرا في الكتابة وخاصة بعد جمع وكتابة القران الكريم من صدور الحفاظ ومن المواد المختلفة التي كان مكتوبا عليها قبل اختراع الورق والذي وردت لفظة القلم باكثر من نص في القران الكريم بسم الله الرحمن الرحيم(ن والقلم وما يسطرون)وكانت الأقلام في بادئ الأمر تصنع من السعف والقصب والغاب حيث استخدم القلم في الكتابة على الورق للتدوين مما ساعد على تطور صناعة المخطوطات في العالم العربي والإسلامي ويعود الفضل في اختراع مادة الورق إلى الصينيين الذين أنتجوه في القرن الأول الميلادي مستخدمين في صناعته سيقان نبات الخيزران المجوفة والخرق البالية أو شباك الصيد حيث كانت تغسل هذه المواد جيدا ثم تطحن في مطاحن خاصة حتى تتحول إلى عجينة طرية ثم تضاف أليها كمية من الماء حتى تصبح شبيهة بسائل الصابون وبعد عملية تصفية دقيقة تأخذ الألياف المتماسكة بعناية لتنشر فوق ألواح مسطحة لتجفف بواسطة حرارة الشمس وبعد ذلك تصقل صحائف الورق بواسطة خليط من النشا الدقيق وتجفف من جديد لتصبح بعد ذلك جاهزة

---

[2]- نقلا عن: كريم نصيف الجميلي، أدوات الكتابة في المخطوطات وتطورها، وينظر:

.1غنيمة عبد الفتاح مصطفى_صناعة الورق سنة 1997

.2هادي بلقيس محسن –تاريخ الفن العربي الإسلامي 1990

.3سيد يمن فؤاد- المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي 2005

.4ألعبيدي صلاح حسين-الخط العربي 1990

للاستخدامات في الكتابة والتدوين وقد نقل المسلمون صناعة الورق من الصينيين وذلك عندما تمكن المسلمون من الاستيلاء على سمر قند عام 751ميلادية واتوا بعدد من الصينيين الحرفيين في صناعة الورق الذين قاموا باطلاع العرب على أسرار صناعته ومنذ ذلك الوقت أدخلت صناعة الورق إلى بغداد ومنها انتقلت إلى سوريا ومصر والمغرب العربي ثم إلى الأندلس التي كان لها الفضل الأول في نشر صناعة الورق في أوربا وتطورت صناعة الورق في إيران بشكل اكبر من مثيلتها في الأقطار الأخرى حيث استطاع الإيرانيون في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي أن يصنعوا ورقا فاخرا من الحرير والكتان كما اعتنوا بضغطه ليكتسب بعض الألوان وتلميعه ليليق بتدوين دواوين الشعر الفارسية التي كانت تكتب عليه بالخطوط الجميلة وتذهب بالصورة الملونة التي كانت تحلى بها المخطوطات وتشهد مجموعة المخطوطات الفنية التي أنتجت في إيران وتركيا والهند والعراق ومصر على ماوصلت أليه الفنون الإسلامية من تطور في التصميم ودقة في التنفيذ وروعة في الإخراج .

الأقلام :من أهم الأدوات الكتابة في المخطوطات القلم الذي عرف العرب منه أنواع كثيرة منها قلم السعف وقلم العاج وقلم القصب والريشة المعدنية وكان أفضلها وأشهرها القلم المصنوع من القصب وذلك لسهولة بريه لتكون ذات سمك معين مسطح الوجه وذات شق في الوجه لتسمح بانتقال الحبر من الدواة بواسطة القلم (القصبة)إلى الورق.

المداد(الحبر):صنع العرب المداد من الدخان والعفص والرماد خاصة رماد أشجار البلوط والصمغ وقد استعمل حبر الدخان للكتابة على الورق بينما استخدم الحبر الصيني للكتابة على الرقوق وقد نجح العرب المسلمون منذ العصر العباسي في ابتكار أنواع كثيرة من الأحبار تتناسب مع طبيعة المخطوطات والأوراق المستخدمة في ذلك الوقت استخدموا الألوان الزاهية في تحليت وتزيين المخطوطات الاسلامية وصنع العرب الألوان من مواد مختلفة منها ماهو مصنوع من مصادر نباتية كالحناء واللبن والرز والورد و الأزهار ومنها ماهو مصنوع من الأحجار الكريمة وتتميز الألوان المستخرجة من مساحيق الأحجار بأنها الألوان ثابتة لاتتغير بعامل الزمن وكانت مساحيق هذه الأحجار تخلط بالصمغ والماء والمستخلص من الورد ومن أهم الألوان التي كانت تستخرج من مساحيق الأحجار الألوان الأخضر والأزرق واللذان كانا تستخرجان من أحجار الفيروز النفيسة ام المصدر الثالث لصناعة الألوان فهو الأتربة بعد أن تتدخل وتصفى وتسحق لتصبح كالكحل ثم تخلط بالصمغ والماء حتى تصبح جاهزة لتزيين صفحات المخطوطات أما المصدر الرابع والأخير في صناعة الألوان المخطوطات فهو التذهيب وهناك نوعان رئيسيان في تذهيب المخطوطات هما المصطفي واللماع أو لهما يتم بلصق الأوراق الذهبية الرقيقة في مواضع التحليق والثاني عن طريق التلوين المباشر بماء الذهب المذاب .

المدية: وهي السكين التي تبرى بها الأقلام

المقلمة:وهي المكان الذي توضع وتحفظ فيه الأقلام المستخدمة للخط وتكون على شكل دائري اومربع وفي بعض الأحيان تكون مزخرفة اوعادية فيه من مهامها الأساسية الحفاظ على الأقلام وجمعها في مكان واحد .

المحبرة اوالدواة:وهي قوارير من خزف أو خشب وبعض الأحيان من الفخار وأحيانا من الزجاج وازدادت تأنقا في العصور المتقدمة فأصبحت صناعتها من الفضة والذهب ومن مهامها وضع الحبر فيها أثناء الكتابة .

الملواق:وهي ماتلاق به الدواة أي تحريك الحبر في الدواة لكي يختلط مع بعضه ليصبح كتلة واحدة .

المفرشة:وهي قطعة من الكتان اوالصوف تفرش تحت الأقلام .

الممسحة:وهي قطعة من القماش ذات وجهين ملونين من الصوف أو الحرير يمسح بها القلم عند الانتهاء من الكتابة حتى لايجف الحبر على القلم فيفسده .

المسقاة:وهي آلة تتخذ لصب الماء في المحبرة ويوضع فيها عوضا عن الماء في بعض الأحيان ماء الورد لتطييب رائحة الحبر وتكون هذه الآلة في الغالب من الحلزون الذي يستخرج من البحر .

المسطرة:وهي آلة من الخشب مستقيمة الجانبين يسطر عليها مايحتاج تسطيره من عدد الأسطر في الصفحة للكتابة وهذا التسطير يساعد على ان تكون الكتابة مستقيمة الأسطر ذو نهاية كل سطر متساوية من بداية الصفحة الى اخرها.

المصقلة:وهي آلة التي يصقل بها ماء الذهب بعد عملية تسخينه ليصبح سائل سهل الكتابة على الورق اوالتزويق اوالتذهيب للمخطوطات .

خوارج النص(التقييدات): التملكات، الوقف، الأمالي، الإجازة، الحواشي، التعقيبات...

التحقيق:

اما التحقيق: فهو في اللغة إحكام الشيء أو التأكد من صحته والبحث فيه للوصول الى حقيقته وهذا مايصدق عليه وهذا ما يصدق عليه قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " سورة الحجرات آيه 6.

وكلمة تبينوا التي جاءت في الآية الكريمة تعني التحقق من صحة الخبر سواء كان مكتوباً او رواية شفوية .

أما التحقق في المخطوط فهو إثبات صحته من حيث عنوانه واسم مؤلفه ومتنه (مادته العلمية) وتقديمه للمطبعة بعد ذلك لنشره ليطلع عليه عامة الناس . وعمل المحقق رد ا لنص إلى اصله الذي اصدره المؤلف وتصحيح ما أصابه من تحريف وتصحيف ومما زيد عليه أو أنقص منه .

اصطلاحا: الاجتهاد في جعل النصوص المحققة مطابقة لحقيقتها في النشر كما وضعها صاحبها لفظا ومعنى .

واقع التحقيق

يصور لنا الأستاذ عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان في كتابه "تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الامثل" واقع تحقيق المخطوطات العربية كما يلي:

"كثيرا مما خرج في عصرنا من التراث على أنه محقق يحتاج إلى وقفة تقويم وتصحيح وإعادة نظر، لما يعتور جهود المحققين له من قصور في الالتزام بالنهج الأمثل للتحقيق، ويتجلى من خلال ذلك الاختلاف الشديد والظاهر في أساليب التحقيق ونهجه، فمنهم من يلتزم بالقراءة الصحيحة للكتاب مع شيء من التعليقات التي تدعو إليها الضرورة توضيحا وتوثيقا لنص الكتاب، وتقريبا له من القراء والمستفيدين، ومنهم من يهمل إهمالا واضحا في القراءة الصحيحة، ويثقل الحواشي بفروق النسخ والتعليقات المستفيضة بداع وبدون داع، مما يؤدي إلى تضخم حجم الكتاب بما لا تدعو الحاجة إليه من جهة، وإلى تفشي الأخطاء والتصحيفات من جهة أخرى، ومنهم من يقتصر على ذكر فروق النسخ مع ما يعتورها من الأخطاء، ومنهم من يتصرف في صلب الكتاب ونصه زيادة ونقصا وتصحيحا دون الأخذ في الحسبان بقيمة النسخة وأهميتها، وكونها نسخة المؤلف، أو الانطلاق في ذلك من أساس علمي صحيح، ومنهم من يقصر التصرف في ذلك على هوامش التحقيق، ومنهم من يحقق الكتاب على

نسخة واحدة، مع وجود نسخ أخرى، أو يستوفي النسخ اللازمة أو يقصر في ذلك، فلا يتحرى اختيار النسخ النفيسة والقيمة،بل يكتفي بما هو في متناول يده من نسخ سقيمة وحديثة، مع وجود النسخ العالية، ومنهم من يعنى بالفهارس المتنوعة بينما يقصر فيها آخرون تقصيرا واضحا إن لم تهمل إهمالا تاما. ولعل هذا الواقع يبين لنا مدى الحاجة إلى إحياء هذا التراث محققا على أسس علمية قويمة، تستهدف إخراجه في صورة صحيحة مبرأة من الخطأ والتصحيف مع ما يتطلبه ذلك من خدمة النص بالتعليقات والفهارس اللازمة." 3[14]

التحقيق وعلاقته بعلم المخطوط،:

- التحقيق يحافظ على نص المخطوط، لمدة تفوق زمن المخطوط،
- التحقيق يعطي للمخطوط صحة عنوانه، ونسبه إلى صاحبه
- يكشف عن المستوى العلمي والثقافي لصاحب النص

الفهرسة: مفهوم الفهرسة:

الفِهْرِسُ بالكسرِ : الكِتابُ الذي تُجْمَعُ فيه الكُتُبُ مُعَرَّبُ فِهْرِسْت وقد فَهْرَسَ كِتابَهُ القاموس المحيط باب القاف ج1، ص: 727.

(فهرس)

كتابه جعل له فهرسا

(الفهرس) الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب مرتبة بنظام معين ولحق يوضع في أول الكتاب أو في آخره يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الموضوعات والأعلام أو الفصول والأبواب مرتبة بنظام معين (معرب فهرست الفارسية)

(الفهرست) الفهرس (د)

المعجم الوسيط ج2،: 704

(فهرس) الليث الفِهْرِس الكتاب الذي تُجْمع فيه الكتُب قال الأَزهري وليس بعربيّ محض ولكنه معرّب.

[14]3 عسيلان، عبد الله بن عبد الرحيم . تحقيق المخطوطات بين الواقع و النهج الأمثل . الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1415 هـ .

لسان العرب، باب فهرس، ج6، ص: 167

تعرف الفهرسة بأنها عملية الإعداد الفني لأوعية ومصادر المعلومات من كتب ودوريات ومخطوطات ومواد سمعية وبصرية ومصغرات فيلمية ... الخ , بهدف أن تكون هذه الأوعية أو المواد المكتبية أو المصادر في متناول المستفيدين من المكتبة بأيسر الطرق وفي أقل وقت وجهد ممكنين .

الفهرسة أيضاً هي " عملية تحديد المسؤولية عن وجود مادة مكتبية معينة أو مصدر للمعلومات , وبيان الملامح المادية والفكرية له , إعداد السجلات الخاصة بذلك , ترتيبها وفق نظام معين , حتى يسهل على القارئ أو الباحث الوصول الى المعلومات التي يريد بسهولة ويسر " [1] والفهرسة أيضاً هي " عملية أنشاء الفهارس , وهي عملية الوصف الفني لمواد المعلومات " [2] وتعتبر هذه العملية من أهم العمليات الفنية التي تقوم بها المكتبات ومراكز المعلومات . ومن أكثرها تعقيداً في نفس الوقت . إذ يتمثل النتاج النهائي لها في وسائل وأدوات للسيطرة على عالم واسع من مصادر المعرفة وتقديمها موصوفة ومنظمة للدارسين وللباحثين في مختلف التخصصات والأهتمامات . و أذا عرفنا الفهرسة بأنه قائمة بالمواد المكتبية التي تشتمل عليها مكتبة أو مجموعة من المكتبات , مرتبة وفق خطة معينة , فإن عملية إعداد هذه القائمة هي الفهرسة. [3]

ثقافة المفهرس

وتطرق الدكتور عمار بعد ذلك إلى ثقافة المفهرس والنقاط التي ينبغي توافرها في المفهرس وذكر منها:

1- الأمانة والصدق.

2- الثقافة الواسعة.

3- الصبر لأن عمل الفهرسة شاق جدا.

4- الإلمام باللغة ماداتها.

5- مجالسة أهل العلم لأنه قد يخفى عليه شيء ويجده عند العلماء بحكم كثرة اطلاعهم

أنواع الفهرسة

الفهرسة بشكل عام تنقسم الى نوعين رئيسين :

1. الفهرسة الوصفية

2. الفهرسة الموضوعية

وتعرف الفهرسة الوصفية بأنها الفهرسة التي تهتم بوصف الشكل المادي لأوعية ومصادر المعلومات عن طريق مجموعة من البيانات التي تعطي للقارئ صورة مصغرة عنها (عن الأوعية والمصادر) وذلك لتسهيل عملية التعرف عليها وتمييزها عن بعضها البعض [4] علماً بأن عملية الوصف الوارد في التعريف ترتبط بالتكوين المادي العمل , ولا علاقة لها بموضوعه أما الفهرسة الموضوعية فهي ذلك النوع من الفهرسة الذي يهتم بتحديد المحتوى الفكري أو الموضوعي لأوعية ومصادر المعلومات , وتمثله برؤوس الموضوعات (Subject Headings)

مفهوم الفهرسCatal.g

الفهرس هو نتاج عملية الفهرسة وكلمة فهرس ليست عربية بل هي معربة عن كلمة فهرست الفارسية وتعني قائمة كتب أو قائمة مواضيع الكتاب وقد أستخدم ابن النديم هذا اللفظ عندما أطلقه على كتاب الفهرست عام 377 للهجرة (987 للميلاد) . وقد جاء في معجم لسان العرب معنى كلمة فهرس على النحو التالي : الفهرس : الكتاب الذي تجمع فيه الكتب [5] كما أورد قطر المحيط تعريفاً أوسع على النحو التالي : فهرس كتابه فهرسة : عمل له فهرس ' الفهرس كتاب تجمع فيه أسماء الكتب ودفتر في أول الكتاب أو أخره يتضمن ذكر مافيه من أبواب والفصول ومواضعها فيه ليسهل الوقوف على المطلوب منها [6] .ويبدو واضحاً أن مفهوم الفهرس قديماً كان يعني , ضمن ما كان يعنيه , قائمة المحتويات للكتاب (Table .f C.ntents) علماً بأن الفرق كبير بينهما . ويمكن تعريف الفهرس بأنه " قائمة بالكتب وغيرها من المواد المكتبية المرتبة وفقا نظام معين أو قائمة تسجل وتصنف وتكشف مقتنيات مجموعة معينة أو مكتبة معينة أو مجموعة من المكتبات "[7]

شروط الفهرس

حتى يؤدي الفهرس دور المكتبة الهام والفائدة المطلوبة لابد من توافر بعض الشروط :

1. الشمولية أو العمومية : حتى نقدم خدمات جليلة للقارئ لابد من الفهرس العام الذي يشمل محتويات المكتبة ومجموعاتها كلها .
2. الإرشاد : إلى مكان الكتاب عن طريق الرمز الذي استعمله الفهرس .

3. الوصفية : ونعني بالفهرسة الوصفية التي تعنى بالكتاب وتعرف به وتقدم له وصفاً يميزه عن غيره من الكتب ويتيح للقارئ الاختيار الأفضل للكتاب ويعرف من خلال الوصف إن كان هذا الكتاب يفيده أم لا .

الفهرسة وعلم المخطوطات[4]

الدكتور أحمد شوقي بنين

الخزانة الحسنية – الرباط

على الرغم من المحاولات العديدة التي عملت على تقنين قواعد فهرسة المخطوطات ورسم مناهجها، فإن الصورة النهائية لهذه العملية لم تتحدد حتى الآن في أذهان الممارسين لها في جميع الجهات. ولم تكن المشكلة وليدة اليوم، بل هي قديمة قدم الفهرسة ذاتها. وإذا استعرض الباحث في هذا المجال الفهارس التي عملت على توصيف المخطوطات بدءا بما بقي من شذرات فهرس الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus)[1] لمخطوطات مكتبة الإسكندرية مرورا بما وضعه الغربيون من فهارس لمخطوطاتهم [2] إلى الفهارس الحديثة التي وضعت للتراث العربي المخطوط، فإنه يلاحظ خلوها من أية أسس موحدة، وبالتالي فإنها تختلف اختلافا بينا في المنهج المتبع في أساليب وصف المخطوطات. لم يقتصر الأمر إذن على التراث العربي، بل يشمل المخطوطات في جميع اللغات وفي مختلف العصور والأزمان.

- [4]- أحمد شوقي بنين، موقع مركز ودود.

[1] كاليماخوس: شاعر يوناني في القرن الثالث قبل الميلاد عينه البطالسة على رأس خزانة الإسكندرية. وقد وضع لها فهرسا مفصلا بعنوان "قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها". يعتقد الأخصائيون أنه أول فهرس منهجي وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العلمية التي لجأ إليها كاليماخوس في تقسيمه للمعرفة تقسيما علميا، وتتصنيف(Pinakes) الكتب حسب هذا التقسيم. واعتبره البعض نوعا من الفهارس الموحدة وضعه كاليماخوس لجميع خزائن الإسكندرية. والحقيقة أن هذا الفهرس يمكن اعتباره تاريخا للأدب اليوناني باعتبار التعاليق التي خصه بها أريستوفانيس البيزنطي أحد أمناء مكتبة الإسكندرية بعد كاليماخوس. وقد احتفظ بشذرات من هذا الفهرس بخزائن المتحف البريطاني بلندن.

[2] قد تجدر الإشارة إلى أن أول من اهتم بفهرسة الأرصدة العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية هم العرب المشارقة. كان بطرس دياب الحلبي وباروت السوري ويوسف العسكري أول من فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية الفرنسية بباريز. كما كانت أسرة السماعنة المارونة مثل يوسف شمعون السمعاني وشقيقه عواد أول من تصدى لفهرسة التراث العربي في مكتبات إيطاليا. وكذلك كان الأمر في إسبانيا: فإن ميخائيل الغزيري اللبناني كان قد وضع أول فهرسة للمخطوطات العربية بخزانة الإسكوريال.

فهل يرجع السبب في ذلك إلى عدم تحديد الفهرسة تحديدا علميا من شأنه أن يوحد هذه العملية في جميع الجهات وفي مختلف اللغات؟ تكاد كل التحديدات تتفق على أن الفهرسة تهدف إلى الضبط الببليوغرافي للمخطوطات وتوثيق وجودها والتعريف بها للمهتمين من القراء والباحثين. ولكن ما حدود هذا التعريف؟ وما مواصفاته؟ وما البيانات المختلفة والضرورية التي يجب أن نقف عندها ولا نتجاوزها في توصيفنا للمخطوطة؟ وما الطرق الكيفية التي يمكن المفهرسَ أن يعالج بها مخطوطته في عملية الفهرسة؟ أعتقد أن هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا حاولنا أن نحدد الفهرسة تحديدا كوديكولوجيا، أي أن نبرز الحدود التي تفصل بين خصائص الفهرسة ومهام علم المخطوطات.

اختلف علماء الغرب في تحديد الفهرسة بالنسبة لعلم المخطوطات أو الكوديكولوجيا. فمنهم من جعلها عنصرا من عناصر هذا العلم [3]، ومنهم من اعتبرها فنا قائمة بذاته يتداخل ويتكامل مع علم المخطوطات. والحقيقة أن كثيرا من العناصر اللازمة لتوصيف المخطوط قد يشترك في الاهتمام بها كل من الكوديكولوجي والمفهرس يعمل كلاهما على التعريف بالمخطوط أو دراسته باعتباره قطعة مادية [4]. ومن بين هذه العناصر قضية مصدر المخطوط التي يتكلف المفهرس بالبحث فيها كأن يقول مثلا: "جاء هذا الكتاب من خزانة كذا أو كان محفوظا في مسجد أو زاوية معينة" "جاء به وجيه من مجموعة وجيه آخر" على غرار ما نجد في مختلف الفهارس [5]. فهذه ليست مهمة المفهرس بقدر ما هي مهمة الكوديكولوجي الذي يدخل في اختصاصه البحث عن مصادر المخطوط ورحلاته بين الخزائن والمكتبات عبر العصور، وذلك ليدرس مجالات أخرى كتاريخ الخزانات وتاريخ المخطوطات. وهي كما نعلم من أخص عناصر علم المخطوطات الحديث.

وقد أوصى رمضان شش التركي في أحد أبحاثه بإعطاء لمحة عن تاريخ المكتبات التي مر منها المخطوط أثناء فهرسته، وهو – كما نلاحظ – تجاوز صريح المجال الكوديكولوجي من طرف المفهرس[6] .

---

[3] Alphonse Dain, Les Manuscrits.

[4] طريقة الكوديكولوجي تشبه طريقة العالم الأثري الذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة. لهذا اقترح بعض علماء الفيلولوجيا في فرنسا وفي بلجيكا عبارة "أثرية المخطوط" (L'Archéologie du manuscrit) للتعبير عن علم المخطوطات.

[5] ينظر "فهرس" المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة الوطنية بباريز؟

[6] من الأمثلة على تتبع مصادر المخطوطات والبحث في رحلاتها وتاريخها تلكم الأعمال التي خص بها العالم المغربي محمد المنوني النسخة التي بقيت من مصاحف عثمان رضي الله عنه، حيث تتبعها منذ أن ذخلت المغرب في القرون الإسلامية الأولى وانتقلت في بوت الملوك والسلاطين إلى أن ضاعت في البحر في القرن الثامن الهجري على العهد المريني. وهي – حسب المختصين – آخر نسخة من نسخ القرآن التي نسخها هذا الخليفة الراشدي.

وقد يعمل الرجلان على تأريخ المخطوط غير المؤرخ. فالمفهرس يؤرخه بالتقريب، اعتمادا على الحدس والتخمين والتجربة الشخصية في مجال الفهرسة. ولا ينكر أحد الجهود التي بذلها علماؤنا الأجلاء في هذا المجال[7].غير أنه قد يصيب كما أنه قد يخطئ. ولا مجال هنا للتعرض للأخطاء التي وقع فيها كثير من المفهرسين في هذا الميدان. أما عالم المخطوطات، فإنه، بالإضافة إلى كفاءته وتجربته الفردية، يستعمل لتأريخ المخطوط غير المؤرخ مجموعة من الأدوات التقنية والعلمية استعيرت من النظريات الفيزيائية والكيماوية أتاحتها البحوث العلمية الحديثة[8] .

أما إذا كان المخطوط مؤرخا، فالمفهرس يحتفظ بالتاريخ المذكور في الكولوفون (C.l.ph.n) أو حرد المتن؛ ولكن عالم المخطوطات يبحثه بحثا كوديكولوجيا ليتأكد من صحته. فقد يدرس الورق ليتحقق من عمر المخطوط، ولم يكن دائما قدم الورق دليلا على قدم المخطوط في الزمن. وقصة ابن البواب الذي أكمل الجزء الثلاثين من قرآن ابن مقلة في ورق شبيه بورق ابن مقلة أكبر دليل على ذلك [9]. ويعلم المختصون كم هي كثيرة تلكم المخطوطات التي يحتفظ الناسخ في نسخته بتاريخ النسخة المنسوخ منها. وقد يقصد الناسخ إلى ذلك قصدا، وقد يكون منه سهوا. وللتأكد من تاريخ المخطوط أهميتان أساسيتان للفيلولوجيين ولعلماء المخطوطات:

---

(7) التملكات والسماعات والإجازات لها أهمية بالغة لمن يأرخون للمخطوط العربي غير المؤرخ. وهي من الوسائل التي يعتمدها معظم العاملين في مجال الفهرسة. فإنها تساعد على تحديد تاريخ المخطوط في حالة عدم وجوده، وتكشف عن قيمته ومدى اهتمام الناس به في فترات معينة من التاريخ.

(8) يعمل الكوديكولوجي في مخبر الإستفادة من النظريات الفيزيائية والكيماوية كالتححليل الكيميائي للمداد والأوعية لمعرفة علامات الكاغد (Bétardiographie) للمقارنة بين الخطوط والبتارديوغرافيا (Hologrphie)والهولوغرافيا (Filigranes)، خصوصا إذا كان الكاغد أوربيا؛ لأن الكاغد العربي لا يحمل هذه العلامات. والمعهد الوحيد في العالم الذي التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في باريز. يتكون (I.R.H.T)تطبق فيه هذه الأشياء هو معهد البحث وتاريخ النصوص هذا المعهد من شعب مختلفة، وهي الشعبة الإغريقية والشعبة ==اللاتينية والشعبة العبرية والشعبة العربية. بالإضافة إلى هذه الأقسام، هناك قسم الكوديكولوجا. ينشر المعهد مجلة "تاريخ النصوص"، وهي الدورية الدولية الوحيدة المتخصصة في تاريخ النصوص.

(9) انظر للمستشرق الدنمركي : يوهنس بدرسن (Johans Pedersen)، الكتاب العربي، Book The Arabic) ، الترجمة العربية صيد رغيبة، ص. 113. في الثلاثينيات عرض في مكتبة القاهرة الكبرى ما يفترض أنه مخطوطة أصلية لابن ملة. وقد تبين فيما بعد أنها كانت من أعمال خطاط حديث.

أولاهما تعطي المقومات الأساسية لتاريخ النصوص، وهو الأساس لما نسميه نحن العرب بالتحقيق العلمي؛ وثانيتهما تساعد على تقدم الدراسات المتعلقة بالبالوغرافيا أو علم الخطوط القديمة[10] .

ومن البيانات التي يشترك فيها المفهرس والكوديكولوجي وصف نوع الورق أو الجلد أو الطرس الذي كان المادة التي تم نسخ المخطوط عليها. ويقضي بعض المفهرسين وقتا طويلا في وصف المادة التي هي وعاء المخطوط باحثا عن نوعيتها ومصدرها، كأن يقول إذا كان المخطوط مكتوبا على الورق: وهو ورق عربي، أو أوربي إذا كان يحمل علامة (Filigrane) [11]؛ وإذا كان مكتوبا على الرق يقول: هو رق غزال أو جلد أو غير ذلك. أما إذا كانت المادة المستعملة للكتابة طرسا [12] (Palimpseste)، وهو الجلد الذي يكتب عليه ثم يمحى ويكتب عليه من جديد – وهذه الظاهرة عرفتها النساخة العربية في فترات تاريخية مختلفة –، فإن المفهرس يكتفي بكلمة "رق" أو "جلد" لنعت مادة الكتابة، لأنه لا يملك من الإمكانات العلمية ما يؤهله لتمييزه من الجلد الخام. إن الإسهاب في وصف مادة الكتابة من ورق وجلد وطرس هو من مهام عالم المخطوطات الذي يبحث فيها لتحقيق غايات أخرى يهدف إليها من خلال دراسته للمخطوط دراسة كوديكولوجية.

---

(10) لفظ باليوغرافيا (Paléographie) من وضع العالم والراهب البندكتي الفرنسي مونفكون (Bénédictin (Montfaucon) 14 دجنبر 1708. درس هذا الراهب اللغة الإغريقية واللغات الشرقية، وله كتاب في المنهجج بعنوان "علم الخطوط الإغريقية القديمة" (Paleographia graeca).

ويجب الإشارة إلى أن علم المخطوطات كان يعتبر إلى وقت قريب جزءا من الباليوغرافيا أو علم الخطوط القديمة. وقد كان العلماء للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ (Palaغ graphie)الألمان يقولون: "الباليوغرافيا التطبيقية" أو "التاريخية" ، واحتفظوا بلفظ "باليوغرافيا" لعلم الخطوط القديمة.(Handschriftenkunde)هاند شغيفتن كونده

(11) يظهر هذا جليا في بعض الفهارس التي وضعها المستشرقون للمخطوطات العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية. فإنهم يصفون العلامة ويحددون معالمها، كأن يقال مثلا: علامة على شكل رأس ثور أو شكل هلال. مثلا، انظر فهرس باريز.

(12) الطرس: ج. طروس، وهي رقاق. وقد جاء ذكرها هنا وهناك في النصوص الأدبية. أخبرنا ابن النديم في "الفهرست" بأن اضطرت إلى استخدام الرقاق المستعملة لسنوات كثيرة ، لأن المكاتب سرقت ونهبت. ولما أصبح الكاغد سلطات بغداد الرشيد، أمر البرمكي الكتاب ألا يكتبوا الرسائل الرسمية إلا على الورق، لأن الجلود تمحى ويكتب يصنع في بغداد على عهد ، الكتاب العربي، التترجمة العربية، ص. 81). ويقال كذلك "طلس": (Pedersen) فيها من جديد. (انظر: بدرسن له: رق مبشور. ج: أطلاس، وهي الصحيفة الممحوة، كما يقال

فالبحث في نوع الورق[13] وفي مصدره وفي أماكن صنعه يهدف منه عالم المخطوطات إلى إبراز مظاهر التطور التي عرفتها هذه المادة عبر التاريخ منذ أن كان مادة عربية تصدر إلى أوربا حتى صار مادة أوربية تصدر إلى البلاد العربية والإسلامية[14] . ويهدف من البحث في نوع الجلد الذي يمكن أن يكون خاما أو مدبوغا أو مصنعا أو ورقا (Parcheminn) أو طرسا (Palimpseste)

إلى رصد التطور الذي عرفته كذلك هذه الأداة من جهة، ثم إلى التنافس الذي عرفته المادتان معا – الورق والجلد[15] – باعتبارهما أداتين أساسيتين للكتابة العربية من جهة أخرى.

وقد دأبت بعض فهارس المستشرقين على الإسهاب في وصف مادة الكتابة وصفا يكاد يخترق به مجال عالم المخطوطات. وقد يلاحظ هذا بالخصوص في توصيف الجلد الذي كان أداة للتجليد أو التسفير.

إن بعض الفهارس وكذلك بعض البطاقات التي اقترحها مكتبيُّن وعلماء لفهرسة المخطوط العربي تلح على الإشارة إلى مكان نسخ المخطوط مع ذكر اسم الناسخ إن ذكرا في حرد المتن أو الكولوفون. وذكر الناسخ أساسي في التعريف بالمخطوط. وقد تحدد قيمة الكتاب بحسب ناسخه. فالمخطوطة نسخة أصلية إذا كانت بخط مؤلفها، وهي مهمة إذا كانت بخط أحد العلماء المشهورين أو الخطاطين المعروفين. وإذا كان من مهام المفهرس

---

(13) في بعض النصوص القديمة كلمة "ورق" لا تعني الكاغد (وهي كلمة صينية) بمعناه الحديث ، بل يقصد بها (Papier) . لهذا وجب الاحتياط وإمعان النظر عند قراءة النصوص القديمة المتعلقة بالورقق. (Papyrus)المصري أحيانا ورق البردي

(14) كان الكاغد العربي يصدر إلى أوربا قبل أن تنشأ فيها مصانع لصنعه. وأكبر دليل على ذلك احتفاظ اللغات الأوربية العربية التي هي خمسة كفوف؛ والكف يضم خمسا وعشرين صحيفة. يقال في اللغتين الإيطالية والإسبانية بكلمة "رزمة" في الفرنسية و "رايز" (في الأصل رز) في الألمانية، و"ريز" في الدنماركية، و"ريم" طبعا في (Rame) و ّ رامّ Resma الترجمة العربية، ص. 92). وأصبح الكاغد الأوربي يستورد إلى الدول العربية الإنجليزية. (انظر : بدرسن، الكتاب العربي، البندقية الإيطالية التي كانت مشهورة بمصانع الورق. وكان الورق بدءا من القرن الثالث عشر الميلادي، خاصة من مدينة رموز المسيحية. ولكن الورق الذي يصدر للبلاد الإسلامية غالبا ما تكون رمزا من (Filigrane)المصنوع فيها يحمل علامة أو الطلوس، فهي ظاهرة قد عرفت في الغرب يحمل علامة ترمز إلى رمز من رموز الإسلام كالهلال وغيره. أما الطروس ترجمتها وكتبوا عليها ثانية. ولما خرد الإسلامي. عندما فتح العرب الأندلس وصقلية، محوا الكتب اللاتينية واليونانية بعد العرب من الأندلس، محا الإفرنج كتب العرب وكتبوا عليها مع أنهم في غنى عن ذلك لوجود ==الكاغد الذي نشره العرب في العربية وبقيت الطلوس أوربا,. وفي القرن الماضي، استخرج الأوربيون بوسائل كيماوية النصوص الغربية القديمة من الطروس الإفرنجية محتفظة بسر الكتب العربية المطلوسة.

(15) هناك نماذج من المخطوطات كتبت على الجلد والورق معا. إن هذا التركيب المزدوج يمثل التزامن الذي عرفته المادتان معا باعتبارهما وعاء للكتابة العربية، كما يرمز إلى الانتقال التدريجي من الجلد إلى الورق.والمثال على ذلك: المعجم اللاتيني – العربي صفحات الوقاية من الرق وباقي صفحات المخطوط من الورق OR.المحفوظ بخزانة جامعة ليدن بهولندة تحت رقم 231

الاكتفاء بذكر اسم الناسخ، فإن مهمة عالم المخطوطات استغلال وجود هذا الاسم لتحديد نوع النسخة – أصلية كانت أو عادية –، ولإبراز رسم الخط [16]. كما يساعد البحث في هذا الموضوع على دراسة مسألة النساخة والنساخ بوجه عام في التراث العربي، وهي قضية من قضايا علم المخطوطات التي لم تحظ بعناية الباحثين حتى اليوم. وكم هي كثيرة المشاكل التي شوهت تشويها كبيرا نصوص
هذا التراث بسبب أيدي الناسخ الذي يجب تخصيصهم بكشافات [17] وأدلة ومونوغرافيات تساعد على القيام بالبحث في حيواتهم وسلوكهم ثم إخضاعهم لعملية الجرح والتعديل التي خضع لها رواة الحديث وخضع لها حتى الرواة من علماء اللغة والأدب. وقد يسفر مثل هذا البحث عن نتائج إيجابية تستفيد منها الكثير نصوص التراث العربي.

أما مكان نسخ المخطوط الذي نجده في كثير من الفهارس، فهو ليس مهما للمفهرس بقدر ما هو أساسي للباحث في علم المخطوطات. إن الإشارة إلى مراكز النسخ في خواتم المخطوطات قد تؤدي خدمة كبرى للكوديكولوجي: إذ تساعده على استجلاء الكثير من الغوامض والإجابة عن كثير من الأسئلة العلمية والتقنية المتعلقة بالمخطوط والتي لا تزال حتى اليوم تحير الباحثين في هذا المجال. وأقتصر هنا على قضية الكراس أو الكراسة في التراث العربي المخطوط. يبدو – حسب الكثير من المخطوطات – أن الكراسة لا تعدو عشر ورقات، وتكون الإشارة إليها بحرف الكاف وقد تكون الإشارة بالكلمة بكاملها [18]. وقد أكد البحث في هذا المجال أن الكراسة[19] قد تكون إحدى عشر ورقة، وقد تكون ثمانية[20] ، وقد تكون غير ذلك[21].

---

(16) يحاول بعض المفهرسين التمييز بين المداد والحبر الذي نسخ به المخطوط، وهو كذلك تطاول على مهمة الكوديكولوجي الذي يحلل المداد أو الحبر في المختبر محاطا بالآلت والتجهيزات اللازمة لهذا التحليل بهدف الوصول إلى المواد التي تتركب منها هذه المادة وليتوصل إلى الأسباب التي دعت إلى انطماس المداد أو إلى بقائه.

(17) هذا النوع من الكشافات قد يؤدي خدمة جليلة للمهتمين بالتوثيق والتحقيق العلمي. كما يجب علينا في عالمنا العربي أن نضع مونغرافيات للنساخ المشهورين مثل ابن مقلة وابن البواب والمستعصمي وسواهم من ألوف النساخ الذين عرفتهم البلدان الإسلامية في مختلف العصور.

(18) وقد يكون الترقيم بالكراريس بالأرقام الهندية، وقد يكون كتابة كأن يقول: سابع، ثامن أو سابعة، ثامنة مع الضمير الذي يعود على الكراسة.

(19) لم يوجد حتى الآن تعريف نهائي متفق عليه لكلمة كراسة التي استعملت في العربية منذ بداية حركة التأليف ةوالتي اعتبرها بعض القدماء كتابا، واعتبرها البعض الآخر كتيبا. وقد تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مخطوطاتها العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية كخزانة برلين بألمانيا قد أدى ترميمها إلى قص الأوراق، مما أدى في غالب الأحيان إلى تقزيم أو فقدان "كاف" الكراسة أو الكلمة نفسها، لأنها لم تعد مهمة بعدما عوضت بنوع آخر من الترقيم.

فهل يعني هذا أن عدد أوراق الكراسة يختلف باختلاف مراكز التنسيخ أو أن هذا الاختلاف يرجع في أصله إلى أسباب أخرى مجهولة لن يكشف عنها إلا البحث الكوديكولوجي للمجموعات الخطية المحفوظة في مختلف الخزانات الدولية، بدءا بوضع قوائم خاصة بالمخطوطات التي حظيت بذكر مركز النسخ ثم ترتيبها زمانيا ومكانيا؟

ومن البيانات التي تدخل في حقل الوصف المادي للمخطوط بيان نوع الخط الذي كتبت به النسخة المفهرسة. يكتفي المفهرس بأن الخط شرقي أو مغربي من دون أن يحدد نوعيته الشرقية أو المغربية [22]. وقد توحي المخطوطة المفهرسة بأنها كتبت بخطوط مختلفة، فيشير المفهرس في بيانه إلى هذا الاختلاف من دون بذل أي محاولة لمعرفة سبب ذلك، مكتفيا بقوله إنها نسخت بأقلام مختلفة. إن عالم المخطوطات يستطيع أن يثبت أنه ليس من الضرورة أن تكون المخطوطة قد نسخها نساخ مختلفون، بل هي من خط ناسخ واحد نسخها في حالات نفسية مختلفة أو في فترات زمنية متباعدة تغير معها خطه. وقد يستخلص هذا من دراسة مخطوطية معمقة لكل أثر من آثار المؤلف. ولن يتأتى هذا البحث المفهرس العاجل المحاط بآلاف النسخ التي تنتظر التعريف والفهرسة[23]

بألمانيا بخط مغربي نسخ عام 582هـ. (Tubingen)[20] سحر البلاغة وسر البراعة، للثعالبي المحفوظ بمكتبة توبنجن كراسته ثمان ورقات. وهو مرقم ترقيما هنديا.

[21] عثرت في أبحاثي الكوديكولوجية في ألمانيا عن مجموعة من المخطوطات القديمة المرقمة حسب الكراريس، أن الكراسة لا تتجاوز فيها ثمان ورقات كما كان عددها إحدى عشرة ورقة في مخطوطات أخرى. وقد أشار بدرسن (في كتابه: الكتاب العربي، ص. 92 من الترجمة العربية) إلى أن الكراسة ثمان صفائح مطوية .وقد اعتبر أحد المحدثين وهو حسن حسني عبد الوهاب قال في شأن كتاب "المختار من شعر شعراء الأندلس" لابن الصيروفي 542هـ: "يظهر الكراسة عبارة عن كتيب حين أن أصل هذا الكتاب يخرج في ستة كراريس، أي نحو مائتي صحيفة. والصحيفة هي الورقة" (انظر مقدمة الكتاب بقلم محققه هلال ناجي، ص. 11).

[22] الخط الشرقي أنواع والخط المغربي كذلك أنواع: منه الأندلسي والتونسي والفاسي والبدوي وما إلى ذلك.

[23] أثبت علماء المخطوطات أن النساخ يملكون أكثر من خط واحد بدليل أنهم يكتبون الشروح والهوامش بخط مغاير لخط النص، وأنهم يميلون في بعض الأحيان إلى تقليد خط النسخة التي ينقلون منها أو ليكون خطهم قريبا من خط النسخة الأم. وقد ثبت في التراث الأوربي المخطوط أن كثيرا من النصوص الدينية المقدسة المنسوخة في القرن 12 و 13م تذكرنا من حيث الخط ، كتاب المخطوطات، ص. 31 (بالفرنسية). ومما يبرز مهارة (Dain)بمخطوطات القرن العاشر الميلادي (انظر ألفونش دان النساخ هو قدرتهم على تعويض ورقة أو جزء من أجزاء مخطوط ضاع مع الزمن بخط الأوراق أو الأجزاء الأخرى نفسه، ولا أدل على ذلك من قصة ابن البواب الذي كلفه بها الدولة حينما كان على رأس خزانته بشيراز بكتابة الجزء الذي ضاع من القرآنالذي نسخه ابن مقلة في ثلاثين جزءا، فكتبه وقدمه للأمير مع باقي الأجزاء، ففحصها بدقة دون أن يكتشف النسخة المكتوبة حديثا،

وعلى الرغم من هذه الأكداس من المخطوطات، فإن هذا المفهرس العابر قد يتوسع أحيانا في التفصيل؛ فيحاول المقارنة أو المقابلة بين نسخ المخطوط المفهرس. يكتفي تارة بمقارنة الكتاب بما هو محفوظ من نسخ أخرى بالخزانة المفهرسة ويتجاوزها تارة أخرى إلى مقابلة نسخته بما تيسر له ووقف عليه من نسخ المخطوط المحفوظة في مكتبات أخرى[24]، مستعينا في عمله هذا بالأدوات الببليوغرافية من كتب تراجم وأثبات وقوائم وفهارس مثل كتاب "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان (Br.kelman)[25] . وقد تدعو البيانات التوثيقية المفهرس إلى ما يسمى بالبيانات التلخيصية يعرف خلالها بموضوع الكتاب وأفكاره وأبوابه وفصوله، فيتجاوز الملخص أحيانا مرحلة التحليل الموجز للكتاب إلى مرحلة النقد وإبداء الرأي، فيصبح الفهرس ببليوغرافيا نقدية. بل ربما تجاوز المفهرس كل هذه المراحل ليقوم بتاريخ للنص المفهرس، مقتحما بذلك – دون أن يشعر – فضاء المختص في تاريخ النصوص أو مجال الكوديكولوجي الذي يعمل على البحث على مختلف نسخ المخطوط للمقارنة بينها، ولدراستها دراسة مخطوطية علمية يستفيد من نتائجها من تسميه بالمحقق.

رأينا – في ما سبق – بعض العناصر التي تعتبر – في رأي العلماء – أساسية في عملية ما اصطلح عليه بالفهرسة، وأبرزنا العلاقة التي تربط بين المفهرس والكوديكولوجي في معالجة كل منهما لهذه العناصر. فهل نكتفي في فهرسة المخطوط بهذا الوصف المادي السريع الذي لا يشفي غليل الباحث المدقق أو نرفع المخطوط للمختبر الذي كثيرا ما كانت نتائجه ونتائج الفهرسة العادية على طرفي نقيض.

إذن هل هناك طريقة علمية وخطة عملية يهتدي بها المفهرس في إطار علاقة الفهرسة بفضاء علم المخطوطات إلى النزوع إلى المعالجة الكيفية لعناصر الفهرسة وتعميق البحث فيها؟ إن

علم المخطوطات لا يقبل البيانات السطحية اليسيرة المكدسة في فهارس المخطوطات موجزة كانت أو مفصلة؛ إنه لا يستسيغ الأحكام المبنية على الحدس والتخمين في حين يمكن إثباتها بوسائل علمية حديثة. إن التداخل بين

فاحتفظ بها جميعا على أنها من أعمال ابن مقلة (انظر: ياقوت الحموري، معجم الأدباء؛ وبدرسن، الكتاب العربي، ص.113 من الترجمة العربية).

[24] بعضهم – وهم كثير – يشير إلى طبعات الكتاب إذا كان قد طبع، معتبرا الطبعة نسخة أخرى يستأنس بها في المقابلة أو المقارنة.

[25] . ولم تعد الإشارة إلى هذا الكتاب (Gal) كثير من الفهارس تشير إلى وجود الكتاب أو عدم وجوده في كتاب بروكلمان ضرورية، ما دامت الكتب التي يحصيها لا تتجاوز العشرين ألف كتاب في حين يقدر تراثنا المخطوط بالملايين. من المستحب أن يستشار الكتاب لا من طرف المفهرس، بل من طرف عالم النصوص الذي يكون بحاجة إلى النسخ المتعددة للمخطوط الواحد. وقد أصبح الكتاب اليوم متجاوزا بحيث ترجع آخر طبعاته إلى بداية الأرعينيات وقد صدرت منذ ذلك الوقت مئات الفهارس فهرست فيها آلاف المخطوطات العربية المكتشفة.

العلمين والتكامل لازب بينهما يدعوان إلى القيام بعمل مشترك قمين بالكتاب المخطوط، وذلك في معهد علمي على غرار معهد البحث وتاريخ النصوص الذي استحدث في باريز منذ الثلاثين من هذا القرن. هناك يمكن علمَ المخطوطات أن يتعامل مع الفهرسة التقليدية تعامل القاضي مع المحجور عليه حتى يتبين رشده [26]. ورشد الفهرسة هو أن يؤكدها علم المخطوطات في بياناتها التاريخية والانتساخية والمادية وما إلى ذلك من معلومات قمينة بتمييز مخطوطة عن أخرى. وإذا ما تم هذا في إطار المعهد المقترح استحداثه وبآلات ووسائل علمية حديثة، انعدم السؤال الخالد المتعلق بقضية الاختصار والتفصيل؛ ولم تعد تطرح هذه المسألة في الفهرسة، بقدر ما تطرح الطرق الكيفية التي يعالج بها كل من المفهرس والكوديكولوجي مخطوطة معينة.

(26) مدخل إلى الكوديكولوجيا، الترجمة العربية، "المقدمة"، ص. 79، مرقون بكلية الآداب بالرباط.

حفظ المخطوطات العربية وصيانتها:

يمكن القول إن حفظ وصيانة المخطوطات والمقتنيات الثقافية والحضارية الأخرى على اختلاف المواد المصنوعة منها لا يعتمد على إجراءات المعالجة والترميم فحسب، بل يعتمد كذلك على تهيئة الأوضاع المناسبة لسلامتها والحفاظ عليها، ولذا فإن أية دراسة لصيانة هذه المقتنيات يجب أن تعتمد على دراسة عامة لخواصها، وتأثير الأوضاع المحيطة بها• ومن المعروف أن أية دراسة أو محاولة لصيانة المخطوطات والوثائق التاريخية يجب أن تكون مرتكزة في الدرجة الأولى على تحديد واضح لعوامل التلف السائدة والأوضاع المحيطة بها(10)،وفي هذا المجال لا بد من التطرق إلى الآتي:

3 . 2 .1 التدابير والطرق الخاصة لحفظ المخطوطات وصيانتها للحفاظ على سلامة المخطوطات وصيانتها لا بد من اتباع الآتي(11) :

أولاً: ضرورة الكشف الدوري المتكامل للمخطوطات وخاصة لأجزائها الداخلية للتأكد من سلامتها وعدم تعرضها لأضرار وآفات معينة ، ويمكن أن يتم ذلك أثناء التنظيف ، وهنا يستحسن نقلها من أماكنها إلى أماكن مكشوفة جيدة التهوية، ومن ثم إجراء التنظيف لها على ألا يشكل ذلك النقل مخاطر أخرى كالسرقة أو الضياع أو الإهمال ، وهذا يعني جدية العمل والمتابعة في الحفاظ عليها وإعادتها فور تنظيفها إلى أماكنها الخاصة.

.ثانياً: العمل على عزل المخطوطات المصابة بالفطريات وغيرها من الحشرات والآفات حال اكتشاف ذلك ووضعها بعيداً عن سائر المخطوطات الأخرى السليمة، وإجراء المعالجة لها، كما أن من الوسائل الهامة لحماية هذه المخطوطات وصيانتها:

أ . حمايتها من عوامل التلوث الجوي ويتم ذلك عن طريق:

1 . غلق النوافذ والأبواب بشكل متقن وإجراء التنظيم الدوري لمخازن حفظها

2. منع التدخين، أو دخول الغازات الضارة للمخازن وغرف وصالات القراءة

3 . استخدام مرشحات مائية لإمرار الهواء النقي داخل الصالات والتخلص من الغازات الضارة

4. وضع المخطوطات في خزائن محكمة الإغلاق لمنع وصول الحشرات والفطريات إليها خاصة في المناطق الساحلية التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة .

ب . التحكم في عوامل البيئة الطبيعية، ويعني ذلك التحكم بدرجة الحرارة ونسبة الرطوبة، ومقادير الأشعة الضوئية .

وقد حدد حسام الدين عبد الحميد محمود الأجواء المثالية لحفظ محتويات المكتبات والمتاحف كالآتي (12)

1. خلو الجو من المعلقات والأتربة بنسبة (95%) على الأقل .

2 . الإضاءة وضبطها بحيث لا تتعدى (150) لوكس للمعروضات متوسطة الحساسية، و(50) لوكس للمعروضات الحساسة للضوء مع حجب الأشعة فوق البنفسجية، واستخدام الإضاءة غير المباشرة قدر الإمكان .

3 . خلو جو المكتبات والمتاحف من التلوث إلى نسبة أقل من (50) ميكرو غرام لكل متر مكعب باستخدام المرشحات الهوائية المتخصصة عند درجة الحرارة (20ْ م) والرطوبة النسبية (55 . 60%).

ثالثاً: مقاومة الآفات والحشرات وإبادتها من خلال عملية المراقبة المستمرة والتفتيش الدوري للتأكد من سلامة المخطوطات، والتعرف على مختلف أنواع الحشرات والآفات التي تتعرض لها .

يضاف إلى ذلك اتخاذ الاحتياطات والإجراءات السريعة للمحافظة عليها من الدمار والضياع في حالة الحرائق والفيضانات والزلازل والحروب .

3 . 2 . 2 . دور تقنيات المعلومات في حفظ المخطوطات وتخزينها

يُحدد (13)مجال ومدى تقنيات المعلومات المستخدمة في المكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات بالآتي:

1 . الاستنساخ والمصغرات الفيلمية المتصلة بإعادة إنتاج المعلومات للنشر والتخزين والتي يطلق عليها (إعادة إنتاج الأشكال المسجلة Repr.graphics).

2 . تطبيقات الحاسوب واستخداماته المتنوعة في الإجراءات والأعمال المكتبية واختزان المعلومات أو النصوص وقواعد البيانات .

3 . تطبيقات الاتصالات بعيدة المدى المبنية على نقل الأصوات والأشكال المختلفة .

وقد استطاعت المكتبات ومراكز المعلومات أن توظف قدرات هذه التقنيات في أعمالها وخدماتها في مختلف دول العالم،وخاصة في الدول المتقدمة، وكان لها تأثيرها الفاعل في أساليب نظم الحفظ والاسترجاع والتزويد والفهرسة والمراجع وسائر الخدمات الأخرى .

وقد أسهمت هذه التقنيات الحديثة كالحواسيب والمصغرات الفيلمية في اختزان مختلف مصادر المعلومات الورقية وكان لها دورها في حل مشكلة المكان، والمحافظة على المعلومات من التلف والتمزق والسرقة، ولا تخفى أهمية استخدام هذه التقنيات في المكتبات والمؤسسات الأخرى المهتمة بتجميع وحفظ وفهرسة المخطوطات للمحافظة على هذه الثروة الخطية وإتاحة استخدامها والاطلاع عليها من قبل الباحثين والدارسين بطريقة غير مباشرة من خلال شاشة الحاسوب أو النسخ المصغر كالمايكروفيلم والمايكروفيش بعد توفر أجهزة القراءة ، فأصبح من السهل تداولها بين الأفراد والمؤسسات لتوافر نسخ متعددة منها ، كما يمكن توفير هذه المصادر الأولية من خلال شبكة الإنترنت.

وانطلاقاً من هذه الأهمية لحصر التراث العربي المخطوط والمحافظة عليه والتعريف به يكون من الضروري وجود جهة مركزية تعنى بتجميع وفهرسة وتصنيف المخطوطات بالتعاون والتنسيق مع المؤسسات الثقافية والعلمية الأخرى في كل قطر من الأقطار العربية لغرض بناء قاعدة معلومات شاملة لتراثنا العربي المخطوط تتضمن المعلومات الكاملة لكل ما هو متوافر من مخطوطات وما يتصل بفهرستها ومواصفاتها وما حقق وطبع منها بموجب استمارة خاصة معدة لهذا الغرض يتم إدخالها في الحاسوب مع الإفادة من التقنيات الأخرى الحديثة ذات القدرات الهائلة في الاختزان كالأقراص الليزرية المتراصة (CD-R.M) ، وبذلك يكون تحقيق الضبط الببليوغرافي الشامل لهذه الكنوز الخطية في غاية الأهمية، وسيكون بناء هذه القاعدة جزءاً من النظام الوطني للمعلومات في كل قطر عربي ضمن إطار التعاون والتنسيق مع المؤسسات المهتمة بالتراث العربي الإسلامي (14).

حفظ وصيانة وترميم المخطوطات العربية

يمكن استعراض المجالات الخاصة بحفظ وصيانة وترميم المخطوطات العربية من خلال الآتي :

المخاطر التي تواجه حياة المخطوطات العربية

وهذه المخاطر يمكن تصنيفها كما هو مبين أدناه :

1. المخاطر الطبيعية تتضمن:

آ• الرطوبة :تعد المخطوطات والكتب من الخامات ذات الأصل العضوي)نباتي أو حيواني) مثل الورق والجلد والبردي والقماش، وأحياناً الأخشاب، وتعد هذه المواد ذات خاصية هيجروسكوبية Hygr.sc.pic natureأي أن محتواها المائي الداخلي يتغير بتغير الرطوبة المحيطة• وعند ارتفاع الرطوبة النسبية في البيئة المحيطة فإن المادة العضوية تمتص الماء، ومن ثم يرتفع المحتوى المائي للمواد، ويتبع ذلك ظهور الأعراض الآتية :

. انهيار الخواص الميكانيكية للمواد •

. قابليتها الشديدة للإصابة بفطريات التحلل•

. يسهل ذوبان الغازات الحمضية إن وجدت في الهواء وبالتالي عمليات التحلل المائي الحمضي وعمليات الأكسدة والصدأ للمعادن

. يسهل التصاق الأتربة والمعلقات الأخرى في الهواء مما يسبب تلوث واتساخ المواد الأثرية

أما بالنسبة للأخطار التي تنجم عن ارتفاع نسبة الرطوبة في المخطوطات فتؤدي إلى التشوهات في شكل المخطوط وتكوّن الحموضة والبقع الصفر على الأوراق ونمو الحشرات والفطريات والبكتريا وسواها

ب •الضوء :هناك أضرار متفاوتة لكل أنواع الضوء والموجات الخطيرة هي بالتدريج كما يلي:

. الأشعة فوق البنفسجية: وهي الأشعة الصادرة من الشمس والفلورسنت المباشرة وغيرها

. الموجات القصيرة: من الضوء المرئي الأبيض حتى الضوء الأزرق لها تأثير أقل ضرراً

. الموجات الطويلة والأشعة تحت الحمراء: لها تأثيرات حرارية وهذا هو مجال ضررها

. اضمحلال واصفرار الأوراق، وزوال بعض الألوان والنقوش والأحبار الحساسة للضوء

. تحلل وتكسر التراكيب الجزيئية للمواد العضوية فتقصف بذلك ألياف النسيج والأوراق والجلود وغيرها

. تؤدي التأثيرات الحرارية للضوء إلى تنشيط تفاعلات الهدم الكيميائية، وما ينتج عنها من تأثيرات الجفاف ومظاهره المختلفة

ومما لا شك فيه أن تأثير الضوء يتوقف على عوامل أخرى لعل من أهمها: قوة الإضاءة، مدى التعرض لها، درجة الحرارة، سمك الورق وكثافته، تركيب الهواء المحيط بالورق من حيث تركيز غاز الأوكسجين وتجدد الهواء والرطوبة النسبية، وغازات التلوث الجوي والموادالمضافة للورق مثل المركبات المعدنية والمواد الحمضية والقلوية

ج• الحرارة) الموجات الحرارية : (الجو الخارجي يكون من مصادر الحرارة في حالة المكتبات والمتاحف المفتوحة، وخاصة في المناطق القارية المناخ والاستوائية، وكذلك مصادر الضوء المباشر مثل أشعة الشمس والمصابيح القريبة، أو التدفئة المركزية الزائدة، وقد يؤدي ارتفاع الحرارة إلى الآتي :

- 1جفاف العجينة اللاصقة لأغلفة المخطوطات مما يؤدي إلى تفككها
- 2جفاف الأوراق والجلود والبردي وغير ذلك من مواد الكتابة، مما يؤدي إلى تشققها لانعدام مرونتها ومن ثم تكسرها وتفتتها
- 3الحرارة العالية تسرع التفاعلات المتلفة داخل المواد الأثرية وعلى سطوحها، وتؤدي إلى انتشار الحموضة وتكوينها نتيجة للتلوث الجوي بالغازات الحمضية على سطوح المواد الأثرية
- 4تسخين المواد عند درجة حرارة 100ْ مئوية لمدد مختلفة يعطي أعراض التقادم الزمني على المواد وهوما يسمى بالتقادم الصناعي
- 5التردد بين الحرارة والبرودة خلال فترة زمنية قصيرة يؤدي إلى تلف المواد وتشققها نتيجة لسرعة التمدد والانكماش المتكرر في هذه المواد

إن ازدياد الحرارة أو حتى نقصانها بنسب كبيرة يؤثر تأثيراً سلبياً على خواص الورق والجلود مما يسبب أضراراً يصعب معالجتها، كما أن المواد اللاصقة المستخدمة في تجليد الكتب تفقد قوتها وتماسكها

بسبب ارتفاع درجة الحرارة •

2. المخاطر الكيميائية

تعد المخطوطات والوثائق من أشد وأسرع المواد تأثراً بالمواد الكيميائية التي يحملها الهواء مما يؤدي إلى إصابتها بالأحماض التي تشكل خطراً فاتكاً على حياتها، ومن هذه العوامل :

آ• التلوث الهوائي والحموضة :من أكثر الغازات الملوثة)الحمضية (خطراً هو غاز ثاني أكسيد الكبريت الذي يتولد في المدن الصناعية وعند احتراق الكبريت• ويتولد عند احتراق الفحم والزيت والعادم من خوارج السيارات• وقد تحدث الحموضة في المخطوطات لعوامل أخرى بخلاف التلوث الهوائي كوجود نسبة عالية من حامض الكبريتيك وكذلك بقايا الكلور في عمليات التبييض للورق •

ب •الأتربة والمعلقات الموجودة في الهواء :وتحمل معها جراثيم الفطريات وبويضات الحشرات التي تنمو بسرعة متناهية خاصة إذا توافرت الرطوبة والحرارة• فهناك إذن الأتربة الدقيقة وغبار المدن الصناعية وغبار الأقمشة في مصانع النسيج وغبار المعادن والرمال عند تحريكها بالرياح، كل ذلك يؤدي إلى تفشي التلف البيولوجي وإزالة النقوش والكتابات•

3. العوامل البيولوجية

نظراً لكون المخطوطات ومكوناتها من أصل عضوي فهي قابلة للتحليل والفساد تحت تأثير الأوضاع المناسبة من قبل الكائنات الدقيقة التي يكون بإمكانها إحداث تغيرات وتشوهات في الورق والأغلفة واللواصق والأحبار وغيرها •

وفي هذا المجال أشار المتخصصون في معالجة المخطوطات إلى وجود أكثر من (سبعين نوعاً من الكائنات) الحية سواء أكانت مرئية كالحشرات والقوارض أو دقيقة كالفطريات والبكتيريا، وهذه جميعها تهاجم المخطوطات وتفتك بها حين تسمح الأحوال المناخية المناسبة لانتشارها وتكاثرها في مخازن المخطوطات والوثائق •

4. العوامل الذاتية

للإنسان كذلك دوره في إتلاف المخطوطات، وذلك بالاستخدام الخاطئ لها أو تصويرها وترميمها

وتخزينها في أماكن غير مناسبة وصالحة، ويمكن إجمال هذه الحالات بالآتي :

• 1التقليب العنيف لصفحات المخطوطات يؤدي إلى تمزقها وتشوه أحرف زوايا هذه الصفحات •

• 2التقليب والتناول للمخطوطات بأصابع قذرة أو ملوثة بالحبر أو مبتلة بالعرق والدهون يؤدي إلى ظهور بقع وبصمات مشوهة على هذه المخطوطات وصفحاتها •

• 3ثني الأوراق للدلالة على الأماكن التي وصل إليها القارئ من العادات السيئة التي تؤدي إلى تكسر ألياف الورق ومن ثم احتمال فقدان بعض أجزاء الورق •

• 4التدخين أو الأكل والشرب أثناء الاطلاع على المخطوطات يؤدي إلى أخطار سقوط الدخان أو شرر الدخان أو المأكولات والمشروبات على صفحاتها وأغلفتها، مما يسبب أضراراً متعددة من اصفرار واحتراق وتبقع يصعب إزالته بعد ذلك •

• 5الضغط على الكتاب المخطوط أثناء التصوير يؤدي إلى تفكك الملازم وتلف كعب المخطوط •

• 6إضافة علامات وكتابات أثناء القراءة مما يشوه بهاء النص الأصلي •

• 7يسبب الترميم الخاطئ لغير المختصين تمزق الأوراق وتلف المخطوط •

• 8جهل بعض العاملين في مخازن المخطوطات بالطرق السليمة لوضعها على الأرفف مما يعرضها للضرر والتقوس •

• 9الإهمال وعدم الالتزام بالمعايير اللازمة في درجة الحرارة ونسبة الرطوبة، وقوة الأشعة الضوئية مما يعرضها أحياناً لأضرار بالغة •

• 10عدم مقاومة وإبادة القوارض والحشرات وسواها بشكل سليم، فضلاً عن عدم رش المخازن بشكل دوري بالمبيدات اللازمة لذلك •

حفظ المخطوطات العربية وصيانتها

يمكن القول إن حفظ وصيانة المخطوطات والمقتنيات الثقافية والحضارية الأخرى على اختلاف المواد المصنوعة منها لا يعتمد على إجراءات المعالجة والترميم فحسب، بل يعتمد كذلك على تهيئة الأوضاع المناسبة لسلامتها والحفاظ عليها، ولذا فإن أية دراسة لصيانة هذه المقتنيات يجب أن تعتمد على

دراسة عامة لخواصها، وتأثير الأوضاع المحيطة بها• ومن المعروف أن أية دراسة أو محاولة لصيانة المخطوطات والوثائق التاريخية يجب أن تكون مرتكزة في الدرجة الأولى على تحديد واضح لعوامل التلف السائدة والأوضاع المحيطة بها،وفي هذا المجال لا بد من التطرق إلى الآتي :

1. التدابير والطرق الخاصة لحفظ المخطوطات وصيانتها

للحفاظ على سلامة المخطوطات وصيانتها لا بد من اتباع الآتي:

أولاً :ضرورة الكشف الدوري المتكامل للمخطوطات وخاصة لأجزائها الداخلية للتأكد من سلامتها وعدم تعرضها لأضرار وآفات معينة• ويمكن أن يتم ذلك أثناء التنظيف• وهنا يستحسن نقلها من أماكنها إلى أماكن مكشوفة جيدة التهوية، ومن ثم إجراء التنظيف لها على ألا يشكل ذلك النقل مخاطر أخرى كالسرقة أو الضياع أو الإهمال• وهذا يعني جدية العمل والمتابعة في الحفاظ عليها وإعادتها فور تنظيفها إلى أماكنها الخاصة•

ثانياً :العمل على عزل المخطوطات المصابة بالفطريات وغيرها من الحشرات والآفات حال اكتشاف ذلك ووضعها بعيداً عن سائر المخطوطات الأخرى السليمة، وإجراء المعالجة لها، كما أن من الوسائل الهامة لحماية هذه المخطوطات وصيانتها:

أ . حمايتها من عوامل التلوث الجوي ويتم ذلك عن طريق:

1. غلق النوافذ والأبواب بشكل متقن وإجراء التنظيم الدوري لمخازن حفظها•

2. منع التدخين، أو دخول الغازات الضارة للمخازن وغرف وصالات القراءة•

3. استخدام مرشحات مائية لإمرار الهواء النقي داخل الصالات والتخلص من الغازات الضارة•

4. وضع المخطوطات في خزائن محكمة الإغلاق لمنع وصول الحشرات والفطريات إليها خاصة في المناطق الساحلية التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة•

ب . التحكم في عوامل البيئة الطبيعية، ويعني ذلك التحكم بدرجة الحرارة ونسبة الرطوبة، ومقادير الأشعة الضوئية•وقد حدد حسام الدين عبد الحميد محمود الأجواء المثالية لحفظ محتويات المكتبات والمتاحف كالآتي :

1. خلو الجو من المعلقات والأتربة بنسبة (95%) على الأقل•

2. الإضاءة وضبطها بحيث لا تتعدى (150) لوكس للمعروضات متوسطة الحساسية، و(50) لوكس للمعروضات الحساسة للضوء مع حجب الأشعة فوق البنفسجية، واستخدام الإضاءة غير المباشرة قدر الإمكان•

3. خلو جو المكتبات والمتاحف من التلوث إلى نسبة أقل من (50) ميكرو غرام لكل متر مكعب باستخدام المرشحات الهوائية المتخصصة عند درجة الحرارة (20ْ م (والرطوبة النسبية (55 . 60•(%

ثالثاً :مقاومة الآفات والحشرات وإبادتها من خلال عملية المراقبة المستمرة والتفتيش الدوري للتأكد من سلامة المخطوطات، والتعرف على مختلف أنواع الحشرات والآفات التي تتعرض لها•

يضاف إلى ذلك اتخاذ الاحتياطات والإجراءات السريعة للمحافظة عليها من الدمار والضياع في حالة الحرائق والفيضانات والزلازل والحروب•

دور تقنيات المعلومات في حفظ المخطوطات وتخزينها

تُحدد مجال ومدى تقنيات المعلومات المستخدمة في المكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات بالآتي:

1. الاستنساخ والمصغرات الفيلمية المتصلة بإعادة إنتاج المعلومات للنشر والتخزين والتي يطلق عليها (إعادة إنتاج الأشكال المسجلة•(Repr.graphics

2. تطبيقات الحاسوب واستخداماته المتنوعة في الإجراءات والأعمال المكتبية واختزان المعلومات أو النصوص وقواعد البيانات•

3. تطبيقات الاتصالات بعيدة المدى المبنية على نقل الأصوات والأشكال المختلفة•

وقد استطاعت المكتبات ومراكز المعلومات أن توظف قدرات هذه التقنيات في أعمالها وخدماتها في مختلف دول العالم،وخاصة في الدول المتقدمة، وكان لها تأثيرها الفاعل في أساليب نظم الحفظ والاسترجاع والتزويد والفهرسة والمراجع وسائر الخدمات الأخرى•

وقد أسهمت هذه التقنيات الحديثة كالحواسيب والمصغرات الفيلمية في اختزان مختلف مصادر المعلومات الورقية وكان لها دورها في حل مشكلة المكان، والمحافظة على المعلومات من التلف والتمزق

والسرقة، ولا تخفى أهمية استخدام هذه التقنيات في المكتبات والمؤسسات الأخرى المهتمة بتجميع وحفظ وفهرسة المخطوطات للمحافظة على هذه الثروة الخطية وإتاحة استخدامها والاطلاع عليها من قبل الباحثين والدارسين بطريقة غير مباشرة من خلال شاشة الحاسوب أو النسخ المصغر كالمايكروفيلم والمايكروفيش بعد توفر أجهزة القراءة• فأصبح من السهل تداولها بين الأفراد والمؤسسات لتوافر نسخ متعددة منها• كما يمكن توفير هذه المصادر الأولية من خلال شبكة الإنترنت•

وانطلاقاً من هذه الأهمية لحصر التراث العربي المخطوط والمحافظة عليه والتعريف به يكون من الضروري وجود جهة مركزية تعنى بتجميع وفهرسة وتصنيف المخطوطات بالتعاون والتنسيق مع المؤسسات الثقافية والعلمية الأخرى في كل قطر من الأقطار العربية لغرض بناء قاعدة معلومات شاملة لتراثنا العربي المخطوط تتضمن المعلومات الكاملة لكل ما هو متوافر من مخطوطات وما يتصل بفهرستها ومواصفاتها وما حقق وطبع منها بموجب استمارة خاصة معدة لهذا الغرض يتم إدخالها في الحاسوب مع الإفادة من التقنيات الأخرى الحديثة ذات القدرات الهائلة في الاختزان كالأقراص الليزرية المتراصة (CD-R.M)، وبذلك يكون تحقيق الضبط الببليوغرافي الشامل لهذه الكنوز الخطية في غاية الأهمية، وسيكون بناء هذه القاعدة جزءاً من النظام الوطني للمعلومات في كل قطر عربي ضمن إطار التعاون والتنسيق مع المؤسسات المهتمة بالتراث العربي الإسلامي•

ترميم المخطوطات العربية

الترميم :هو عملية تكنولوجية دقيقة ذات عرف خاص موحد عالمياً، وهي في الوقت نفسه عملية فنية ذوقية جمالية تحتاج إلى حس عال ومهارات فائقة• وتتضمن عمليات تجميع وتثبيت وتقوية وتجميل وإعادة المواد الأثرية إلى شكل أقرب إلى أصلها• وهي بتعبير آخر عملية علاج للأثر المسن في محاولة لإزالة بصمات الزمن ومظاهره المتعددة مثل الكسور، والتشققات، والثقوب، وأحياناً اختفاء أجزاء معينة تختلف في حجمها أو مساحتها، كذلك موقعها داخل جسم الأثر أو المادة المراد معالجتها•15

أنواع الترميم

يمكن تقسيم الترميم إلى :

أ . الترميم اليدوي :الترميم بالأصل عملية يدوية خاصة تتصل بقوة التحكم ومهارة العمل وجمالية التعامل مع الآثار والمخطوطات باستخدام بعض الأدوات الخاصة والتي تختلف من شخص إلى آخر يصنعها وينتقيها بنفسه لتتيح له استخدام ذوقه الفني ومهارته• ورغم التطور العلمي والتقني فإنه مازال معروفاً أن الترميم اليدوي هو أغلى أنواع الترميم، وهو الحرفة النادرة في العالم التي تعنى بإعادة الروح إلى المخطوطات النادرة القيمة وإرجاعها إلى أصلها، وكذلك الحال بالنسبة للوثائق التاريخية للمطبوعات الثمينة•

ب . الترميم الآلي :يستخدم الترميم الآلي في حدود ضيقة بالنسبة للمخطوطات ولكن استخدامه أوسع وأكثر انتشاراً بالنسبة للمطبوعات، وينقسم إلى:

1. الترميم باستعمال معلق لب الورق في الماء "Leaf Casting" وقد استحدث هذا النوع في الستينيات في الاتحاد السوفييتي السابق، ثم انتشر في الكتلة الشرقية في رومانيا والمجر، ثم النمسا، ومنها إلى أوربا والولايات المتحدة•

وتعتمد فكرة الجهاز المستخدم على استعمال معلق لب الورق المضروب جيداً في الماء محسوباً وزناً ومساحة ثم امتصاص هذا المعلق في الثقوب والمساحات الناقصة ليكون مساحات ورقية، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التجفيف تحت ضغط معين للحصول على النتيجة النهائية للترميم•

2. عملية التقوية بالرقائق :"Laminati.n" وتتم هذه العملية أساسا للمطبوعات والجرائد والوثائق وفي حدود ضيقة للمخطوطات شديدة التلف التي يصعب ترميمها بالطرق اليدوية• وتعتمد على التقوية بلصق رقائق شفافة على سطح الورق فتجمعه وتقويه في صورة مساحية ثابتة• وقد استخدمت هذه الطريقة في إيطاليا وانتشرت منها إلى أرجاء العالم الغربي، كما تطور هذا النوع أيضاً في الولايات المتحدة الأمريكية، ومازال هناك بعض التحفظ لدى بعض الدول باستخدام مثل هذه الطريقة•

وهناك ثلاثة أنواع معروفة من التقوية السطحية بالرقائق البلاستيكية، وهي :

أ • طريقة المعالجات المنفصلة :ويتم فيها معالجة صفحة المخطوط أولاً باللاصق ثم وضع الغلالة البلاستيكية عليه •

ب • طريقة المعالجة الواحدة :يتم تطبيق الغلالة البلاستيكية التي سبق معالجتها باللاصق، ويتم التطبيق باستعمال ضغط بسيط بالحرارة أو دونها •

جـ• اللصق بالحرارة :ويتم تطبيق الغلالة البلاستيكية تلقائياً دون استعمال لاصق وذلك تحت تأثير الضغط والحرارة •

اختصاصيو الترميم

ينبغي أن تعهد مهمة الترميم والعناية بالمخطوطات وصيانتها إلى أمين مكتبة متخصص، فضلاً عن تضافر جهود جميع العاملين في المكتبات ومراكز المعلومات للمحافظة على سلامة المخطوطات وحمايتها، ويمكن استعراض أهم واجبات اختصاصي الترميم بالآتي:

1. التأكد من جميع المواد المستخدمة في عملية الترميم والصيانة باختبارات عملية للتأكد من جدوى استعمالها• وهذه المواد هي الورق، والخيوط، والمواد اللاصقة، وغيرها•

2. الحصول على معلومات جديدة عن صناعة الأحبار والورق والمواد الأخرى بمتابعة البحوث والدراسات التي تنشر في الدوريات ومصادر المعلومات الأخرى العربية والأجنبية•

3. أن يكون واثقاً من أن جميع الطرق المستخدمة في خطوات الترميم كاستعمال الحرارة، أو الضغط لا تسبب ضرراً، بل تدعم بقاء الوثيقة أو المخطوطة أطول مدة ممكنة وتزيد من قوة احتمالها، وإمكانية قراءتها•

4. ينبغي حفظ المخطوطة بعد الترميم والصيانة في وضع طبيعي وتخليصها من بعض المواد المفسدة، أو الأوضاع السيئة بما في ذلك الهواء الفاسد أو الحرارة الزائدة، أو تنامي الرطوبة، وغير ذلك•

5. يجب على اختصاصي الترميم استخدام ذكائه ومهارته اليدوية وذوقه الفني بهذه العملية مستعيناً بالمهندسين والفنيين، وخبراء ترميم المخطوطات والوثائق•

خطوات ترميم المخطوطات وتجليدها

هناك ملاحظات هامة قبل بدء عملية الترميم يمكن توضيحها من خلال الآتي:

1. تصوير المخطوط لأن التوثيق الفوتوغرافي يكون ضرورياً في متابعة هذه العملية وتقييم ما قام به المرمم ومعرفة مهارة الترميم وجودته•

2. إملاء استمارة خاصة لتشخيص حالة المخطوط قبل البدء بعملية الترميم تتضمن حقولاً متعددة تخص طبيعة ووضع الأوراق، وعنوان المخطوط، واسم مؤلفه، ومصدر المخطوط، وتاريخ تسلمه، ومقاساته وعدد صفحاته، ونوع الخياطة والحباكة، والمواد المستخدمة في تعقيمه••• وغير ذلك•

3. التعرف على نوع الإصابات الحشرية والفطرية للتأكد ولتهيئة طرق ووسائل المعالجة والترميم وفق ما يتناسب وطبيعة الإصابة ونوعية التلف الموجود•

4. إذا كانت هناك أجزاء مقتطعة ومنفصلة، ففي هذه الحالة ينبغي على اختصاصي الترميم تجميعها والاحتفاظ بها لغرض استعمالها لاحقاً في استكمال الأجزاء الكلية للمخطوط وإعادتها إلى حالتها الأولى الأصلية•

أما بالنسبة إلى خطوات ترميم المخطوطات وتجليدها فيمكن إيجازها كما هو مبين أدناه :

1. ترميم القطوع الداخلية البسيطة في الصفحات باستعمال ورق شفاف خاص يعرف بـ Dennis.n`s Transparent Mending Tapes•

2. ترميم الأجزاء الناقصة بالورق الياباني) Japanese Papaers بطريقة اللصق وتقشير الحواف) وبعجينة الورق•

3. ترميم كعوب الصفحات المزدوجة، ويتم بربط الصفحات المزدوجة المنفصلة بشريط لاصق من الجهة الخلفية وعلى امتداد خط الاتصال مع التقيد بمساحة قياسية موحدة في الكتاب الواحد•

4. تكوين الملازم (من مجاميع الصفحات المزدوجة وخياطتها•(

5. خياطة الملازم لتكوين جسم الكتاب المخطوط•

6. تعزيز الكعب بالغراء السائل وتثبيت كسوة القماش به•

7. تجهيز غلاف الكتاب•

8. تلبيس غلاف الكتاب في جسمه•

العمليات الأساسية لترميم وصيانة المخطوطات:نظراً لاتساع عملية الترميم وكثرة العمليات والإجراءات التي تدخل في معالجة المخطوط وترميم أوراقه وتقويتها والمواد المستخدمة في هذه العملية وما تتطلبه من خبرات ومهارات فنية من قبل المتخصصين في هذا المجال فإننا نستعرض بإيجاز العمليات الأساسية لعلاج وترميم المخطوطات من خلال الآتي:

أ ـ التنظيف :الهدف منه تخليص الأوراق والجلود مما علق بها من أوساخ كالأتربة، وآثار الأقلام، أو وجود فطريات وبويضات الحشرات المختلفة•

ب ـ إزالة البقع :ويتطلب ذلك أولاً تحديد نوع الورق وحالته، ومن ثم تحديد نوع البقع والأوساخ، وأنواع المواد الكيميائية اللازمة لإتمام هذه العملية•

ج ـ إزالة الأحماض الزائدة :تتكون الحموضة في الأوراق والجلود إما نتيجة لتركيب الأوراق ودباغة الجلود، أو بسبب أوضاع التخزين، أو عن طريق الأحبار المستخدمة في الكتابة• لذا لا بد من إزالة حموضة الورق وأن يعادل قبل عملية التقوية لمنع التحلل الداخلي للورق•

د ـ فصل الأوراق الملتصقة :تتأثر أوراق المخطوطات بالأوضاع البيئية والعوامل الجوية• إذ يؤدي التقادم الزمني إلى إضعاف مقاومتها• فالرطوبة الزائدة تؤدي إلى تشبع الورق والجلود فتنمو بعض الكائنات الدقيقة، وخاصة الفطريات مخلفة مواد حمضية لزجة وبقع لونية وأحماض عضوية، مما يؤدي إلى التصاق الصفحات بالجلود ومن ثم تحجر المخطوط•

هـ ـ إصلاح التمزقات وإكمال الأجزاء الناقصة :يقوم المختص بالترميم بإصلاح ما أصاب أوراق المخطوطات من تمزق، أو انتشار الثقوب، أو تكسر بعض الأطراف، أو فقدان بعض الأجزاء، والقيام بتثبيتها وتقويتها بالمحاليل واللواصق الكيميائية، واستخدام مختلف الطرق والأدوات والأجهزة في هذه العملية.

ومن كل ما تقدم يتضح أن عمليات الترميم هي عمليات فنية وذوقية تحتاج إلى المهارات اليدوية والخبرة في معالجة الآثار المصابة بالتشققات والكسور والثقوب، وهي في كل الأحوال تقوم على أسس

واحدة في مختلف أرجاء العالم كالمحافظة على أثرية المخطوط، واستخدام الخامات الطبيعية والابتعاد عن الخامات الصناعية قدر الإمكان، كما ينبغي أن تكون عملية الترميم عكسية بما يسهل فكها عند الحاجة•